سلوى بكر

قصص

شعور الأسلاف



8
B

إهـــــــداء 2004

منحة من SIDA



اسم الكتاب : **شعور الأسلاف** (قصص)
اسم المؤلف : سلوى بكر
الطبعة الأولى 2003
الناشر : مكتبة مدبولى ، 6 ش طلعت حرب ، القاهرة .
Madbouly Bookshop 6, Talaat Harb Sq., Cairo
هاتف: Tel.: 5756421 فاكس: Fax : 5752854
موقع الإنترنت : Urr : www.madbouly.com
البريد الإلكترونى : Email : madbouly @madbouly.com

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/٥٤٢٢
الترقيم الدولى : 977-208-424-4

دار الصفوه للطباعة
٣٢١٤٥١٥ - ٠١٠/٥٦٥٩٤٨٤

سلوى بكر



مكتبة مدبولى

إلى أشرف عبد الله أبو بكر

ومـــاري حـــداد

حضور لم يضيعه الغياب

كرسي الباشا

هُم المُلاّك ونحن المستأجرون، ورغم ذلك فعلاقتنا لا بأس بها، لا بل هي طيبّة فعلاً، فلا هم يسلكون معنا مَسلك أصحاب البيوت فيأمرون وينهون فيما يتعلق بخاصتهم، ونحن من الذوق والكياسة بما يكفي لنحرص على مكانهم وكأنه مكاننا: لا إسراف في استهلاك المياه، لا دبدبة على السلالم، لا تخريب لزرع الحديقة، أو نشر غسيل على حبال الشرفة، يشرّ ماؤه ليبلّ غسيلهم الناشف.

أمهم طنط فاطمة أغا صاحبة أمي. ووفقاً لأمي هي تكبرها بعشرين سنة، لكنهما تتعاملان ببساطة، ومودة أنداد في العمر ذاته، فإذا كانت أمي طيبة، فطنط فاطمة ربما كانت أطيب منها، وهي مسالمة، ربما سلاماً إجبارياً طال معظم الناس الذين سادوا في الزمن الذي بات يطلق عليه العهد البائد، فبعد الثورة أمموا معظم أملاكها وأملاك عائلتها من بيوت وأطيان في مناطق مختلفة من البلاد، ولم يتبق لها إلا ذلك البيت القديم المبني على طراز هجين من الإيطالي والفرنسي والعثماني، أو أي طراز آخر كوزموبوليتاني يُمكن مشاهدته في أي مدينة من مدننا مرّ عليها عسكر القرن التاسع عشر الأوربيون، ولقد ظلت نسور سقفه البسماركية الأربعة شاهداً على مجد غابر

شهده البيت، لكنها باتت تستدعي الشفقة دون الاستفزاز، على رغم مخالبها المفتوحة تهديداً وأظافرها المشرعة وعيداً، بسبب تساقط معظم ريش أجنحتها الجصيّة من السقف، ولم يكن الجعرانان النحاسيان المثبتان على بابه الحديدي في حال أحسن، وقد زحف عليهما الصدأ الأخضر ملتهماً لمعانهما القديم، ليضيف إلى مأساة تكبيلهما المزمن بقضبانه الحديدية مأساة أخرى.

عندما أصدر حبيب الملايين جمال عبد الناصر قراراته بتخفيض أجور المساكن مرتين، لم تحقد طنط فاطمة عليه، وظلت صورته وهو يرفع علم مصر على مبنى قناة السويس معلّقة على حائط حجرة السفرة بمكانها، ولم تتغير معاملتها لنا، نحن المستأجرون، لشقق بيتها، فقط الذي تغير كان اهتمامها بالحديقة، فقد بدأ حماسها للأشجار والنباتات المزروعة بها يقل شيئاً فشيئاً، حتى ذبل معظمها وماتت. كانت تبدو لي خلال تلك الأيام، بشعرها الأبيض المهوش حول رأسها الضخم وعنقها السمين، كأسد هصور شاخ وفقد عرينه إلى الأبد، وكنت ألحظ حسرة شفيفة تعتريها أحياناً عندما تسير على ممرات الحديقة الزلطية الملونة، وهي تتأمل رسوماتها المتشكلة على هيئة أفاع وطيور وحيوانات، وتقول لأمي السائرة إلى جوارها آنذاك:

ـ فنان أسطى والله من عمل كل ذلك. كان عنده صبر وطول بال.

كنا ننزل إلى شقة طنط فاطمة بالدور الأول المفتوح على الجنينة لننطلق فيها لاعبين جميعاً بناتاً وأولاداً بتاريخنا المحفور في أعماق لاوعينا، فنتجسد تماثيلاً بمجرد أن يعلن أحدنا: تماثيل الإسكندرية يا بنات مصر. تتسمر أختي فاتن كتمثال فينوس بصدر ممسوح لم تجُد

الاثنا عشـر عاماً التي عاشـتها بأكبـر منه، بينما يعتلي أخي الأصـغر شجرة معلناً أنه الإسكندر الأكبر. وأحياناً كنا نلعب «عسكر وحرامية» إحياءً للزمن المملوكي العصيب، أما الإنجليز، فقد حفرناهم في ألعابنا «كـيك على العـــالي، كـيك؛ على الواطي» ونحن نمـط في الكلمـة الإنجليـزية Kick بينما نقفز معـتلين السلالم، أو نهبط مسرعين إلى الأرض، و«كرسي البـاشا» الذي كنا نضطر إليـه إضطراراً عند صدور أوامر عـلوية لنا من طنط فاطمـة لتلعيب الـصغار، دون سـن الجري والرمح، درءاً لضيق الكبار بـهم قليلاً، وقد كان ذلك ما فـعلته معنا ذات غروب شتـوى خاضع لنفوذ ريح مستـخفة بكل شيء، إذ أطلّت علينا ونحن نلعب بالحديقة ونادتنا من شباك مطبخها آمرة:

ـ يا فاتن، يا سامية، يا سميـر، تعالوا شيلوا عزيز وارحموا أمكم ولاعبوه كرسي الباشا.

تجـاهلنا نداءها بعض الوقت، فـقد كنّا مـتـشاغلين بالبـحث عن مخـابئ «حرامي الحلة» وهو نوع من النمل الأسـود الكبيـر لا يقرص ولا يؤذي لكنه كان عرضـة لمضايقتنا له دائماً، بينما هو يشـتغل بجد ناقلاً شحنة طعـام قد تكون فتيتة خـبز صغيرة، أو حبـة عنب جافة، إلى أحد مخازنه. ولما لم نردّ صعّدت أمرها بحزم وهي تصرخ:

ـ سمعت يا خنزؤور منك لها؟! يا الله، إطلعوا شيلوا عزيز خلينا نشوف شغلنا ونخلص أيدينا من العجين.

امتثلنا، قفزنا السلم إلى المطبخ، لنجدها ما زالت جالسة قبالة أمي تصنعان على طاولة المطبـخ فطير الرحمة تمهـيداً لخبزه، ليـأخذوه يوم الخميس إلى القرافة لتوزيعه على روح أمها التي ماتت منذ أسبوعين.

حاولت فاتن، أختي الكبرى، إيجاد معوقات فقالت:

ـ طيب، عاوزين مخدّة نشيل عليها عزيز.

ـ هاتوا مخدة من جوه، لكن إياكم توسخوها أو تقع منكم على الأرض.

ـ طيب. قلنا في نفس واحد، وجرينا إلى غرف النوم لنخطف مخدة من على أقرب سرير صادفناه ونطير بها إلى الجنينة مرة أخرى، بعد أن حملت فاتن عزيزاً معنا.

سمير وفاتن شبكا أيديهما الأربع مجتمعة مُشكّلين قاعدة الكرسي، ووضعنا المخدة فوقها ليجلس الملك المُبجل عزيز على دسته الوسائدي، بينما رحت أسند ظهره بيدي من الخلف لئلا يقع، فلما استتب الوضع، رحنا نتحرك بالموكب ونحن نهتف بعزم حيلنا:

ـ كرسي الباشا. عزيز عاش. كرسي الباشا. عزيز عاش.

لا أدري هل كان عزيز يستمتع بهذه اللعبة حقاً، أم كان يظن نفسه ملكاً حقيقياً يتوجب حمله، فلقد فتح شدقيه، كما يفعل عادة عندما نلاعبه، وبانت دراديرفمه الخالي من الأسنان، كنت أظن دائماً وبجد أن عزيزاً يتصور نفسه ملكاً، لأنه كان يبدو لي وهو على هذه الحال أشبه بالعديد من الملوك والرؤساء الذين أشاهد صورهم في الصحف التي يقرؤها أبي، لكن ما كان يثير حنقي دوماً هو لعابه النازل عمالاً على بطال وهو على كرسي العرش، وهو ما فعله في ذلك اليوم، إذ همى غيث فمه على أقرب شيء صادفه وهو راحة عايدة بنت طنط فاطمة الصغرى، والتي كانت تحاول سنيده من الأمام، فقالت متقززة:

ـ يا مقرف.. يا أبوريالة.. كفاية.. أقفل بقك.

واصل سعــادته غير مكتـرث بها، وواصلنا نحن هتـافنا سائرين، متهكمين على عـايدة، ولكن فجأة تعثرت عـايدة في حجر بالأرض، فسقطت لنسـقط جميعاً فوقـها، بينما استطعت بصعـوبة الحفاظ على عزيز ومنعته من السقوط، فـراح يبكي وقد هاله على ما يبدو انقلاب النظام وسقوط الملكية.

أخذنا نتـضاحك وقد أثارتنا المفـاجأة، فظللنا راقدين فـوق بعضنا البعض على المخـدة، وعزيز فـوقنا يبكي، لكنه سرعـان ما كف عن البكاء وقد أصـابته مـوجة ضحكاتنا برشـاشها، فـراح يكركر ويشـغو بسعادة أضـحكتنا أكثر، لكني أوقفـته بضربة خفيـفة على يده بعد أن تمادى ناسياً نفســه وراح يقبض على ضفيرتي بقوة آلمتـني وكأنها حبل غسيل وليس شعراً آدمياً.

أفـقنا من نوبة الضـحك وبدأنا ننهض نافـضين التـراب عنا، لكن سرعان ما هالنا ما رأيناه ولم نكن قد حسبنا حسابه أبداً.

كانت المخدة العرش، قد تهرأ قماشها وتمزق، وانبعث من أحشائها كمٌ من الأوراق المكدســة فوق بعـضهـا البـعض، والتي ما كـدنا نهم بالتقـاطها حـتى كانت ريح الخـريف الناشطة، قد سـارعت تبعـثرها وتطيرها كـحمامات صـغيرة لا يمكن الإمـساك بها، جرينا مـحاولين اللحاق بها، لكن وجود عزيز معنا والخوف الذي بدأ يداهمنا، جعلانا لا نواصل المحـاولة، بل نفـضّل الجـري إلى المطبخ للنـنقل إلى طنط فاطمة خبر المخدة الأليم.

ـ طنط.. وقعنا المخدة ووقعنا، وانقطع قماشها والورق كله طار.

حركـت طنط فاطمـة إليتين اختـزنتـا سنين طويلة من أكل الدسم

والسمن البلدي، تاركة عجين الرحمـة، وسارت إلى الشباك لتستطلع أحوال المخدة، بعد أن لطمت صدرها لطمة تردد صـوتها بقوة كنتيجة لاصطدام كف لا يقل بأى حال عن رطل، بنحر يماثل عشرة أضعافه، بينما راحت تطلق مونولوجها الموجه لنا بعبارات ناهرة سريعة.

ـ آه يا جحوش كلكم. مخدة غندور ابني!

حـوّلت أمي المونولوج إلى ديالوج، وفـتـحت القـاموس المحـيط للشتائم العائلية المعـروفة، ثم أعلنت عن إجراء برنامج تأديبي شامل، سوف يطبق علينـا بمجرد عودتنا إلى الشـقة، بعد أن تنتـهي من عمل فطير الرحمـة. جرينا إلى الحديقة مرة أخـرى، رجعنا بالمخدة المجني عليهـا. كانت طنط فاطمـة قد هدأت قليلاً، أخـذت المخدة وراحت تتأمل قـماشهـا الممزق وقطنهـا البارز بحسـرة، ثم وضعـتها جـانباً، وراحت تكمل عمل الـفطير، وبدت وكأنهـا تبذل جهـداً كبيـراً حتى تكظم غيظها.

لكن لم يكن من الممكن أن تكظم طنط فاطمـة غيظها إلى الأبد، فبعد أيام قليلة جـاء إلى البيت القديم عساكر كثـيرون، بلباس أسود، ليكبسـوا شقتهـا ويفتشوها، قـالبين كل شيء فيها رأسـاً على عقب، وبعد أن انتـهوا، أخذوا الـغندور معهم، وذهبـوا به بعيـداً عن البيت لسنوات طويلة.

أمي ظلت تحكي الحكاية لكل من يزورها، وهي تبكي بينما تقول:

ـ مـسكين يا عين أمـه. كان شـاب سكّرة، وطالب شـاطر. سنة واحدة كـانت باقية لـه ويتخرج من كليـة الحقوق. لكـن المسكين كان حـاطط المنشورات في المخـدة. والعيـال لعـبوا بهـا في الجنينة، وكل

الناس عرفت أن الأستاذ إسماعيل ساكن الدور الرابع هو المبلغ عن الغندور، لأنه شغال في وزارة الداخلية، ثم..

«أهئ أهئ.. صعبانة عليّ أمه، عمرنا ما شفنا منها إلا كل خيرْ، ولما نقصوا الإيجار مرتين، قبلت الموضوع برضى وطيب خاطر. تصوروا؟! قالوا لها قضية الغندور هي محاولة قلب نظام الحكم.. تصوروا؟!»

تتابع أمي البكاء والحديث، ونحن نتأملها، وحزن يأكل قلوبنا على الغندور، وخجل هائل يلتهم أرواحنا مما فعلناه، خصوصاً كلما تصادمت نظراتنا مع نظرات طنط فاطمة التي رأيناها تنتظر وتنتظر عودة الغندور، بينما كانت تذوى شيئاً فشيئاً بسبب المرض ثم تموت.

شعور الأسلاف

أحيـاناً، تبدو لي كجِنيَّةٍ مـستحيـلة، تُدلي ضفيرتهـا من شاهق، لأتلقّفهـا صاعدة إلى علياء قلعتـها، فأغيب في متـاهاتها وقد رُبِطتُ بحـبل سـرّي من نسيج الـعنكبوت، وإلا، فـمـا الذي يربطني بهـذه العجـوز ذات الأسنان الستـة، والسنين الستين، تطالع الجـريدة بالكاد وتتحرك بـرشاقة سلحفاة. أقـول مرّات: إنه الزمان السرّاق المـغتصب لأيّامنا، فلا يرحمنا بفسحة نتأمل فـيها أنفسنا، وكذا الآخرين. مرّات أخرى، أدين الجغـرافيا المتوحـشة لهذه المدينة الشائخـة التي قُدّر علينا العيش فيهـا، فلفظتنا إلى نتوء من نتوءاتها النامية كـفطر على جْسدها المترهل القديم.

أهجس: إن ما بيني وبينهـا هو استبـعادي كمطلقـة مغلولة بطفل منغولي لـه جسد مـستوحش فـي السادسة والعـشرين، وعـقل ببراءة التاسـعة. من ناحـيتهـا، قد تتضح الرؤيا بكـونها موجـودة، هجرت ولديها الـلذين سافرا واسـتقـرا منذ زمن في الدنيا الجـديدة، بعد أن جربت أن تسايرهما وتكون معهما مرّة، لكنها آثرت الإياب إلى دنياها القديمة، والعيش في أم الدنيا، على كل الذي هناك.

إن أمسياتي المتـاحة معها دوماً. صباحاتي لا تـتحقق إلا إذا عبرت

الخطوات العشرة الفاصلة بين بابها وبابي لأقول لها قبل أن أهبط إلى الشارع: «أنا نازلة للشُغل. عاوزة حاجة؟».

هل النرجيلة هي ما يربطني بها؟ لقد أدمنت تدخين النرجيلة معها، علماً بأنني ما دخنت السجائر يوماً. نضع النرجيلة بيننا في شرفتنا وقت الغروب، والرجل الطفل قبالتنا، نتبادل أنفاساً تدغدغ ماء قاورتها فتكركر مالئة فراغات زمن جملنا المتبادلة. جمل مبتورة بلا رجاء أو مستقبل، وكأن غرضها الإعلان عن وجودنا كأحياء فقط: «الرطوبة عالية من أول امبارح». «أم خليل البوابة مسحت منور العمارة بالليل». «حاسب يا ممدوح يا حبيبي الفحم يحرق يدك». لكن. أقول إن النرجيلة لا تكفي لتكون سبباً، ربما أكون مصابة بنوع من اليأس، ولم لا؟! ألست أبدو كأرملة تجاوزت الخمسين، بينما سنوات عمري لم تزل تزحف نحو الأربعين، ألست أمضي في الحياة، بهذا الابن العاهة كطير قُصّ ريشه، فلا سبيل له إلى الارتفاع والتحليق؟! ألا أتمنى ألف مرة أن يكون لي رجل آخر، بدلاً من ذلك الذي وضع النير في رقبتي ومضى إلى أخرى منحته صبياناً وبناتاً جاؤوا إلى الدنيا بعقول تنمو وتزدهر بمرور الأيام كبقية مخاليق الله؟ من الرجل هذا الذي يرغبني بهذا النتوء الضخم الرابض على عنقي، والمكبّل لخطواتي، والذي يدفعني يوماً بعد يوم للانزواء والعزلة بعيداً عن الناس والحياة فلا أخرج إلا لعملي فقط، ولا أعود لبيتي إلا لأحتمي بسقفه هاربة من الدنيا إلى ملكوتي الوحيد المتاح، حيث النرجيلة بيني وبينها، والولد أمامنا يرقبنا بنظرات ميتة كمهرج ضخم في سيرك، يتصنع الموت ليبعث البسمات على الشفاه.

ما أعـرفه عـنها وتعـرفه عني هو ضـرب من التهـويمات وهالات غمـوض، رغم سنوات جيـرتنا الممتـدة، فقـد كشـفت لي عند بداية تعـارفنا منذ سنوات، عن سـيـرة ذاتيـة خابيـة، لن يلحظـها أحـد، وستكتـمل دون ما يمكن التوقف عنده، حـتى وجههـا بت أظن كلما تأملته أنه موائم تماماً لسيرة من هذا النوع، فالمرء إذا ما تطلّع إليه مرّة، لن يُجذّر في الذاكرة أياً من تفاصيله، لأنه ببساطة لن يحاول الالتفات متطلعاً إليه مرّة أخرى، باحثاً عما يجود به على أرشيف هذه الذاكرة.

غير أنني في ذلك اليوم الذي دخلت عليهـا فيه فجأة، بدأت أراها على نحو مختلـف، فلقد ذهبت إليها في صبيحـة يوم إجازتي، بينما كان رجلي الطفل، يرقـد على سريره كحوت ميـت دفعت الأمواج به إلى شاطئ من الشطآن. كنت أود أن تعيرني خيطاً فسألتها:

ـ عندك فتلة خضـراء أخيط بها جونلتي الزيتي لأن جنبـها انفتق، وأنا مكّسلة أنزل أشترى بكرة؟!

قالت وقد بدت منهمكة للغاية في أمر من الأمور:

ـ تعالى، دوّري في مرجونة الخيط.

قلت:

ـ لا. لا . . أصلي تركت باب الشـقـة على آخره، وممدوح جـوه على السرير. لما تلاقيها هاتيها لي على مهلك.

ـ الله. تعالى لحظة. قالت وهي تشير إلى أن أتبعها. ثم أضافت:

ـ تعالى خدي المرجونة معك، ودوري على الخيط فيها براحتك.

دخلت وراءها غرفة النوم الوحـيدة بالشقة الصغيرة الوافـية بالنسبة لعجوز وحيـدة مثلها، فتحت الدولاب لتـعطيني سلة الخيط المصنوعة

من القش، وإذ لاحظت حاجبيّ المرفوعين فوق عينيّ المحدّقتين في كومة الشعر الهائلة فوق ملاءة السرير البيضاء، وقد تساقطت عليها أشعة شمس الصباح، فبدت خيوطها تشابكات من الأسود والأرجواني والفضي، قالت وهي تتنهد:

ـ شوفي. فتحت مخدتي قبل ما أفتح لك الباب، وقلت أهوّي الشعر بالمرة وأحطّه في الشمس. أصل كيسها قدم وانفتق. ناوية أعمل لها غيره جديد.

تساءلت بدهشة، وأنا أتامل ضفيرتها الطويلة المنسدلة على ظهرها:

ـ ياه. المخدة كلها شعر.

ـ آه شعر أمّي. المخدة كانت في الأصل مخدتها، كل ما تسرّح شعرها بعد الحمّام بالمشط سنّ الفيل، تلمّ النازل منه وتحطّه في كيس دمور لحد ما صار مخدّه. شوفي شعرها الأسود لما كانت شابّة والأحمر لما صارت تحنّيه بحنّة حمراء بعد ما الشيب طقطق فيه، فلما شناخت تركته على لونه. كان عندها ضفيرة كما سلوك الفضة. يا خسارة لما ماتت كنت في المستشفى، ومنعوني من حضور خرجتها لأني كنت نفساء، وقالوا حرام، وخافوا الحليب يضيع من صدري. لو كنت جنبها ساعة طلوع الروح كنت أخذت ضفيرتها، قصيتها، ألف رحمة تروح لها، لكن الحمد لله عندي منها كومة الشعر في المخدة، وضرسين، وسن، كانت خلعتهم قبل موتها، محتفظة بهم في كيس أطلس قديم.

ـ آه ضرسين وسن. يا سلام!؟ قلت، وأنا آخذ منها سلة الخيط وأندفع آفلة إلى شقتي.

هل كانت هذه الواقعة لحظة انقلاب في رؤيتي لمنيرة فتحي؟ . لا أعرف، كل الذي حدث بعد ذلك هو أنني ظللت أفكر فيها، وقد انطبع مشهد الشعر المهوش على السرير، شعر أمها الباقي وهو يلتمع بألوانه الحمراء والسوداء والبيضاء، بينما أحاول تسديد الخيط الأخضر في خرم الأبرة بعد عودتي مرة أخرى. لقد تخالطت مشاعري تجاهها بعد ذلك اليوم، فلم تعد بالنسبة لي هي المرأة العادية، التي لا تلحظ عادة، بدت على نحو من الأنحاء عجوزاً غامضة، لها تعقيدها المثير، وأظن أنني منذ ذلك اليوم بدأت التوقف لتأمل عالمها الذي لم أكن أتوقف عنده من قبل، فصرت كلما دخلت إلى شقتها بعد ذلك، لشرب النرجيلة أو القهوة، أتلكأ قليلاً أمام الصور العديدة المرصّعة لكل حيطان بيتها تقريباً، لقد اكتشفت أنها لا تعلّق صورها وصور عائلتها على الحائط فقط، بل إنها تنشر تاريخها العائلى في كل ركن من أركان بيتها، فالصور لم تكن شخصية أبداً، بل كانت بمثابة حكايات ناطقة بحياة عاشتها هذه المرأة ذات يوم، حتى مطبخها الصغير، حظى بصورة لأمها وخالتها عُلّقت على الحائط فوق المنضدة ذات القرص الرخامي القديم المركونة، بدت الأم فيها منهمكة في تقطيع سمكة ضخمة بينما الخالة تمسك بذيلها في حماس. في كل مكان صور لأعمامها وأخوالها وأبنائها وزوجها الميت وأهله في البحر، في حديقة الحيوان، داخل مدرسة، عند الهرم ؛ الصورة الوحيدة الشخصية، كانت لها وهي عروس على ما يبدو، إذ ظهرت فيها شابة نضرة بفستان من الحرير الأبيض، تمسك بيدها مروحة من ريش النعام، وقد لا مست أطرافها لحم صدرها المشدود المنبثق من

فتحة ثوبها الواسعة.

جملها القصيرة المقتضبة، لم تعد عادية بالنسبة لي، إنها تملأ فراغات عجزت الصور عن الإفصاح عنها:

ـ النرجيلة. بابا الله يرحمه، كان مزاجه يدخنها بعد القيلولة، تصدّقي أول مرة دخنتها كان معه! كنت أسحب منها نفساً أو نفسين في الأول، حتى أتأكد أنها سالكة. كان التمباك أيامها نشتريه وهو ناشف ونبلّه وننقعه في المياه، وأمي كانت تقصّه وتوضّبه وبابا يسحب منه على الجاهز.

إنها لا تتحدث عن والديها إلا عبوراً، لحكاية من حكاياتها عن يقينها القديم، ذلك الذي تعيش فيه دوماً، وأبحث من خلاله عن يقيني، يقين يقيني آلام الروح وعذاباتها.

ـ جاب لي البوسطجي جواب من سامي ابني الكبير قبل آذان الظهر، وأنا كنت مشغولة بشيل التراب من شيّالة الكعك الفضية، كانت لخالتي الله يرحمها وقدمتها لي يوم دُخلتي.

ـ فؤاد ابني كلمني بالتليفون من أمريكا بالليل. ابنته الكبيرة ناوية تزور مصر. طالعة سمراء لأن أمها أصلها من إيطاليا. لكن سمارتها طبق الأصل سمارة عمي حسين الله يرحمه.

ياحظّها! أقول لنفسي مرات، ما كل هذا الرضا عن الدنيا والعالم. أنا يأكلني الخوف كل يوم ألف مرة. أخاف إلى درجة الرغبة في الصراخ أحياناً. أخاف أن أفقد وظيفتي وأصبح بلا مصدر للدخل (من أين نأكل أنا وابني؟). أخاف أن تنهار العمارة القديمة التي نسكن فيها مثلما تنهار عمارات عديدة هذه الأيام (أين نسكن لو حدث ذلك

بالفعل؟). أخاف أن تستمر حياتي هكذا، لا أمل في وجود رجل إلىَ جانبي يشاركني قسوة الأيام، أو يمنحني فرحاً ما في بعض منها.

لكن خوفي الأهم والأعمق، والذي كان يتزايد يوماً بعد آخر، هو أن أصحو من نومي ذات صباح لأجد الدنيا ليس بها يقيني الوحيد.. جارتي العجوز منيرة فتحي، تميمة السكينة لهواجس روحي ومفتاح حياتي.

كنت أخاف أن تموت فجأة وتتركني، فأفقد تلك الجرعة اليومية المُنَشّطة لروحي، والمانحة الأمل لي في إمكانية العيش ليوم آخر.

ما هو الموت؟ كنت أتساءل عادة عندما أصل إلى هذا الحد من التفكير، بينما أبقى وحيدة في الليل، أتأمل حوتي النائم وقد علا شخيره دون انقطاع.

أقول لروحي: الموت هو الغياب؟ غياب ماذا؟ غياب الشكل والملامح والجسد؟ أم غياب الروح، أم غياب لحظة المشاركة؟ أريد تعريفاً مقبولاً للموت؟ ظل ذلك هاجسي لفترة طويلة، حتى أنني كنت عندما أفرغ من عملي، ألعب اللعبة مع الكمبيوتر، أسأله بعد أن أغذيه بقدر من المعلومات؛ وقد قدم لي أجابات مدهشة في سذاجيتها: تحلل الجسد وفناؤه. اختفاء شخص. توقّف ضربات القلب. هبوط الدورة الدموية. انتهاء وظائف المخ... الخ.

ولكن أليس في الموت طرفان، الذي يموت، والذي يصدمه موت من يموت؟، كيف نعرّف الموت بحالة طرف دون الطرف الآخر؟! إذن ما تعريف الموت بالنسبة للطرف الآخر؟!

رحت أعاود سؤال الكمبيوتر مرة أخرى، الإجابة كانت مذهلة:

العين لا ترى. الأذن لا تسمع. الفم لا يُقّبل. اليد لا تلمس..

جارتي العـزيزة، قدمت لى إجابة أكثـر دقة مما قدمه الكمـبيوتر، وبسرعة لم أكن أتوقعها أبداً فقد جاءتنى مرة بعد منتصف الليل، تدق بابى دقاً متلاحـقاً، فلما فتحت وقد هببت من النوم، أظن أن مـصيبة قد حلت بطفلي. وجدتهـا أمامى في حالة إعياء واضحـة، قالت إنها متعـبة جداً، سحـبتها بسرعـة لداخل شقتى، مددتهـا على سريرى، جريت إلى المطبخ لأناولها شربة ماء طلبتـها لأن ريقها جاف، وما أن فعلت حتى جريت إلى الهاتف لأطلب لها طبيباً من أقرب مستشفى.

عندما عدت إليها بعد ذلك مسرعة، وجدتها ممددة على السرير بلا حراك، وقد مـال رأسها على طرف مخدّتي، لـتتدلي ضفيـرتها باتجاه الأرض، ضفيرة فـضية تتكسر عليها الشـعاعات الشحيحـة للمصباح المعلق بجوار السرير.

وقفت مـتسـمرة، رغـبت فى الصراخ، لكن شـعوراً مطمـئناً بدأ يجتاحنى مغلفاً روحى بسكينة لم تعهدها من قبل.

إذن.. لقد دخلت اللحظة التي طالما خـشيتها، لكن ها أنا فـيها، هادئة، مطمـئنة، وقد أدركـت أنها ممكنة وليـست مـستـحيلة، إنهـا اللحظة/ النهاية مع جارتي التي كانت، لا نرجيلة بيننا ولا طفل رجل قبالتنا.

«الموت. ها هو يفـصح عن تعريف ملمـوس، محسـوس له، إنه الحسرة على ماض نتمنى ألا يكتـمل»، قلت لنفسي وأنا أتأمل وجهها الشائخ، وقد رسم الموت عليه تعبيراً أبدياً لا نهاية له.

ورغم ذلك، فقـد شعرت بحيـرة ونوع من الغموض تجـاه تصادم

ذلك الموت معي، لقد بدأ لـي أنه منفلت من كل تعريف، منفلت من كلِ مفـهوم. أشعـر أنني سُرقت، شيء ما، غـالٍ وثمين سُرق مني، وخُطف عنوة.

بدون أن أدري سـرت بـهـدوء إلى دولابي لأخـرج مـنه المقص، وأمضي بثبات إليها، ثم أقف قلـيلاً أتأملها مرة أخرى، قبل أن تمسك يدي بضفـيرتها الناعـمة الغـزيرة فأقصـها بحزم، وقـد استبـانت بها شعيرات سوداء شحيحة صارعت الأيام.

توجـهت إلى المرآة، نظرت نفسي وأنـا أثبت الجديلة أكليـلاً على رأسي، كانت روحي تزداد سكينة، وأنا أعلن لنفسي انتصاراً ما، بينما سيارة الإسعاف تعلن عن مقدمها بأصوات حادة تخترق أذنيّ.

مخدة «سني»

كيف انفتق ذاك الفتق الوسيع في نسيج الذاكرة الممتد، فخرجت منه كل هذه المخدات، مخدة إثر أخرى، كما لو كانت محشورة حشراً ومكدّسة تكديساً عنيفاً داخل هذا النسيج، وكأن ما فعله القط «سني» لم يكن إلا خمشاً ليس إلا، فتمزق الخيط اللاضم لتلك الغلالة الرهيفة التي قبعت بداخلها كل هذه المخدات، رغم أن «سني» نفسه لم يكن إلا نتيجة هذه اللعبة التي لا نمل تكرارها دائماً حتى ندفع بعيداً بذلك الملل الرهيب الجاثم على حياتنا، وقد صارت رغماً عنا بتلك الجزيرة التي كانت ومازالت بيزنطية الروح والملامح، بعد أن لفظتنا مدننا المستباحة القاسية، مدينة إثر أخرى. كنا نذهب بين الحين والحين إلى «أولومبيا» السمسارة ونقول لها: «نريد شقة مناسبة لمستر أبي على»، وبعد يوم أو يومين تتصل بنا «أولومبيا» وتقول: «تعالوا شوفوا شقة مستر أبي على» ؛ فنذهب ثلاثتنا: زوجي وأبو على وأنا إلى مكتبها الواقع في منطقة «أنجومي»، التي هي قرية استيقظت ذات صباح لتجد نفسها في أحضان المدينة. «أولومبيا» تدعونا إلى شرب قهوة تركيّة، لكننا نعترض ونقول لها: لا.. لا.. القهوة عربيّة، ولأن أبا على كان من القوميين العرب ذات يوم، وناصرياً لا حلّ له،.

فإنه كـان يحرص على إفهام «أولومـبيا» أن البنّ كـان يزرع في اليمن أصلاً قـبل زراعتـه في أي مكان آخر، أو كيف اكـتشـفت الماعز البنّ باليمن عندما لاحظ الرعـاة مزاج الماعز آكلة البنّ ونشاطها الغـامر بعد وجبة أو وجبتين منه ؛ وكنّا بعد القهـوة وتصحيح معلومات أولومبيا، نذهب لندور على الشـقق، نتـفـرّج على واحـدة واثنتين وثلاث، ثم نقول لها: «لا . . لا يا أولومبيا مع الأسف الشقة واسعة وكبيرة وغالية على أبي على»، أو «الشـقة بعـيدة عن وسط البلد، وأبو علـي عاوز واحدة قريبة من قلب الأحداث» ـ كنا نسـخر كثيراً من ندرة الأحداث بالجزيرة ـ وعندما لا نجد شيئاً نقوله، كان أبو علي يحلّها بهدوء، يهز كتفيه ويرسم علامة التأفف بشفتيه ثم يقول: «ريحها ثقيلة».

أولومبـيا لا تيأس منا أبداً، ونحن حـريصون على اللعبُ، لذلك فـور أن هاتفـتني في صـبـاح ذلك الخـريف المشمس نادر الحـدوث بالجزيرة، وأنبـأتني عن وجود شقـة مناسبة لأبي عـلي، حتى أيقظت زوجي، بسرعة، فأيقظ أبا علي بدوره وارتدينا مـلابسنا بسرعة أطفال ذاهبين إلى حـديقة الحيـوان، وقد قـررنا أكل أي سندوتش في السكة عند كرياكو، لنذهب بعد ذلك إلى أولومبيا في مكتبها.

كنا في ظاهر الأمـر نتصنّع نوعـاً من الجدية والاهتـمام للحـصول على شقة للرجل، لكن في الحقيقة، كانت بداخل كل منا رغبة عميقة في أن يبـقى الوضع على مـا هو عـليـه، فمنـذ أن حلّ أبو علي في الجزيرة، وهو يقيم كـضيف عندنا، ريثما يجد سكـناً مناسباً له، وكنا مسـتأنسين جـميعـاً ببعـضنا البعض، بالأحـرى كنا نحاول التـشبث بوجودنا معـاً، وكأن ثلاثتنا اثنان هما «جَليفر» و «جـمعة» في الحكاية

الشهيرة، رغم أننا لم نكن أناساً خارجين من خرافة، تحطمت مركبهم وألقت بهم الأقدار في جزيرة مجهولة بعرض البحر، بل كنا مقذوفين إلى شط لجمة الهلال الخصيب من الشط البيْروتي القريب، وقد دفعتنا دفعاً حمم الحـرب ونيرانها وأوساخ السياسة وشنـاعة الأنظمة المهجّنة بالسمـاسرة والعسكر، الذين بـاعوا وسلموا كل شيء ووزعـوا العمل بينهم وبين الشـعاراتية من كل نوع، ابتـداءً من رافعي رايات الأحـمر القاني حتى حاملي أعلام السواد من أهل العباءات والعمم.

هكذا وجدنا أنفسنا ذات يوم على متن سفينة شحن خرجت بنا من طرابلس لبنان بقيادة ربان اسـمه «الكابتن روبين»، نسف كل تصوراتي الحالمة عن ربابنة السـفن في الأفلام السينمائيـة وهم يقبّلون حبيـباتهم تحت الصارى عـلى خلفية من زرقـة البحـر، ونوارس بيضـاء ترفرف عاليـاً، معلنة عن اقتـراب الشط، وقد منحت روبين من مـخيلتي يداً حديدية بخطاف عـوضاً عن يده اليسـري، وعصابة سـوداء على عينه المفقوءة وفـقاً لمشيئتي، فـاكتملت صورته وظلت مطبـوعة في ذاكرتي بعد ذلك، بجسده البدين، وهو يرتدي السـروال القصير ويلطم بكفه الضـخم بحاراً شـاباً لم يحـوّل الدفـة في الوقت المناسب كـما أمـر «روبين».

استـقبلتنا الـسيدة «كـرياكو» بشـعرها الشـمسي المتـوهج بأكسـيد النحاس، وحاجبـيها الأسودين اللذين يذكراني كلما رفعتـهما لتتكلم بأنتوني كوين، وراحت تعد لنا ثلاثة سـاندوتشات أو شاطر ومشطور وبينهـما طازج مـن نساير ورك الديك الرومـي على أرضيـة من ورق الخس وشـرائح الطماطم، أكلنا بـسرعـة حتى نوافي «أولومـبيـا» في

الموعد عند العاشرة والنصف.

فرّجتنا إلهة «الأولمب» على الشقة، كانت لا تبعد كثيراً عن سور البلد القديم الفاصل بين المنطقة اليونانية ؛ ومناطق الجيش التركي، كانت صغيرة، متميزة الذوق في معمارها، نظيفة، بحرية سعرها معقول، وبها كل المواصفات التي كنا نطلبها من «أولومبيا» دوماً، بدت المرأة مرتاحة أو شبه منتصرة، ربما لأنه بدا علينا، وكأننا تورطنا وأسقط في يدنا كما يقال، فلا عذر ولا حجة لنا في عدم قبول الشقة، وقد خلت من كل عيوب الشقق السابقة التي أعلناها لأولومبيا، لكن سرعان ما خاب ظنها، بعد أن أطل أبو على من شباك غرفة النوم الرئيسية ثم قال:

ـ ياه.. مستحيل.

تحركنا زوجي وأنا، ونظرنا إلى حيث نظر، ثم صحنا في صوت واحد:

ـ فعلاً.. مستحيل.

كانت الشقة تطل على الفناء الخلفي لكنيسة حيث نبتت من الأرض مجموعة صلبان حجرية فوق بلاطات رخامية سوداء وبيضاء، لمقابر تناثرت عليها زهور جافة صفراء وزرقاء وبنفسجية وأخرى حمراء بدت على البعد زاهيةً وكأنها وضعت منذ يوم أو يومين على الأكثر.

اقتربت أولومبيا قليلاً من النافذة ونظرت، تراجعت دون أن تقول شيئاً، وشعرنا وكأنها ظنت أن مبعث رفضنا هو أننا مسلمون، لا نرغب في أن تطالعنا كل يوم كنيسة ومقبرة بصلبان، ابتسمنا لبعضنا البعض بخبث ثم قال لها أبو علي بإنجليزيته الممتازة التي اكتسبها أيام

العزّ حين كان يدرس في جامعة «اكسفورد».
ـ إيه.. هل هناك شقة أخرى يا عزيزتي؟.
ـ لا.. سوف أرى بعد ذلك وأتصل بك.
كنا لا نعرف أن «أولومبيا» لن تمل البحث عن شقة لأبي على وليس فقط بسبب مهنتها والتكسب، ولكن لأننا نظن: زوجي وأنا، أنها تميل إليه بعض الشيء، فذلك العجوز الذي أوشك على الدخول في الستين، كان لا يزال يحتفظ بوسامة قديمة، و«كاريزما» جاذبة لكثير من النساء اللواتي يلتقيهن.
عدنا لنركب سيارته البويك القديمة التي جئنا بها إلى «أولومبيا»، والتي كان قد استأجرها منذ وقت قريب من مكتب تأجير سيارات، وكنت قد بدأت أفتح الباب لأجلس على المقعد الأمامي إلى جانبه، عندما سمعت من المنزل المقابل الذي يُكلل الإفريز العلوي لبوابته تاج ضخم من زهور الفتنة البيضاء الرائعة.
ـ سني.. سني.
حدقت في المنزل لأتبين صاحبة الصوت، لكنني رأيت قطاً ممتلئاً يخرج من بوابة البيت الموارية، وكأنه استعار شعر زوجة «كرياكو» على جسده، وهو يتهادى عابراً الطريق الضيق الفارغ تقريباً عند ذلك الصباح الشتوي ويتقدم باتجاهنا، حتى اقترب من باب السيارة الذي لم أكن قد أغلقته بعد دخولي إليها، همست بتلقائية واندفاع يهيمنان عليّ كلما رأيت كائناً من تلك العائلة الأسدية المستأنسة.
ـ بس بس.. بس بس.. سني سني.
سارع القط من خطواته، ويقفزة واحدة، فاجأتني، وجدته وقد

استقر في حجري وأنا جالسة داخل السيارة.

ضحكت، وقد دغدغتني مخدّات أقدامه الطرية اللينة وهي تلامس جسدي، رحت أمسح على رأسه وأمسّد شعره بفرح، إذ بدا لي ظريفاً أليفاً، ثم قلت:

ـ غريب خالص، وطبعه مختلف عن طباع القطط.

رغم ذلك كنت أشعر بداخلي بنوع من الريبة الغامضة، فصاحبته قد نادته لكنه تجاهل نداءها، بينما سارع بالقفز إلى حجرى لمجرد أن همست له باسمه، كدت أدفع به بعيداً عني، خارج السيارة، لكن أبا علي بدأ يدير محرك السيارة تأهباً للسير، والقط بدأ يكوم نفسه على هيئة كعكة مشتعلة بالأحمر في حجرى ويغمض عينيه، وكأنه يرقد مستأنساً بفراشه المعتاد.

أعلنت بهدوء:

ـ سنأخذه معنا.

صرخ زوجي بسرعة:

ـ يعني نسرقه، صاحبته نادت عليه وأنت سمعت بنفسك؟!

رددت:

ـ لكنه لم يعبّرها. ونطّ عندنا.

ـ يا سلام! ردّ زوجي ساخراً.

حسم أبو علي الأمر، إذ كان قد بدأ يتحرك بالسيارة مبتعداً عن المكان دون تعليق، كنت أعرف أنه وجد حكاية جديدة سوف ننشغل بها لبعض الوقت دافعين عن أنفسنا الملل اليومي المعتاد الذي نوزعه بين التسكع في الشوارع بالسيارة ولعب الشطرنج طوال ساعات، ثم

القراءة والفرجـة على التليفزيون ـ مرة أو مرتين ربما، كنا قـد اشتركنا في مظاهرات صاخبة ضد حـزب الديمقراطية الجديدة وهو حزب يميني فـاشي ـ وربما كـان شعـوره أن حكاية الشـقـة أوشكت أن تكون مملة بدورها، صاح زوجي بضيق:

ـ كيف نحطّه في الشـقة ونلمّ وسخـه، ثم إن البراغيث ستـغرقنا بسببه؟!

ـ ولا يهمك.

قلت، ثم واصلت:

ـ سأشتري له طوق براغيث، وأحل مشـاكل وساخته. والله يظهر أنه ظريف ودمه خفيف.

نطق أبو علي أخـيراً وهو يتـجاوز سـيارة «رولز» حـديثة تقـودها حسناء، تعتبر من النوادر في هذه الجزيرة:

ـ لكن، واضح أن سني زهقان من صاحـبته، لأنه هرب عند أول فرصة أتيحت له، وتركها وخرج.

قال زوجي بسرعة:

ـ كأنه كان زوجها ومُطلّعة دينه.

ضحك الـرجلان. ورمقت زوجي بيـنما أزم أنفي وأخرج لـساني تعليقاً على دعابته وسرنا في اتجاه البيت.

طوال الشـهـور التي تلت ذلك، بدا سني قطاً عـادياً تمامـاً، يأكل وينام، مهذب، لا يسرق، لا يخـرب أي شيء أثناء لعبه، ربما مدّ يده مرة أو مرتين أثناء لعبنا الشطرنج، مدحرجاً قطعة بعيداً عن الرقعة، أو خاطفاً بيدقاً بأسنانه في محاولة يائسة لافتراسه.

روجي اعتبره قطاً بليداً أضاف إلى مللنا مللاً في هذه الجزيرة. أبو علي كان رأيه أنه قط عاطل عن كل جاذبيه تتمتع بها القطط عادة. كنت أظن أنهما متعنتان تجاهه. وربما كان اهتمامي به يثير بداخلهما شيئاً ما ضده، وربما كان سلوكه الأول معي يقف وراء عدم قبولهما له. في الحقيقة اعتراضي على سني الذي لم أصرّح لهما به أبداً، كان لونه فقط. إنني كنت أفضل أن يكون أسود، ويا حبذا لو كان رمادياً مخططاً بالرصاصي. عموماً، سارت حياتنا مع سني حتى ذلك اليوم الشتوى البارد جداً، والذي أعقب عدة أيام ممطرة، كانت الأرض قد تغطت بطبقة خفيفة من الجليد، بعد انخفاض الحرارة وتراجعها عدة درجات تحت الصفر، لم يعد البرد محتملاً رغم وجود تدفئة مركزية بالمنزل، وكان أبو علي قد ذهب لزيارة صديق قديم له وفد على الجزيرة في الصباح وقرر أن يبيت عنده بالفندق فهو لا يرغب الخروج مرة أخرى في البرد، وهكذا قبعنا زوجي وأنا في الفراش مبكّرين نقرأ حيناً، ونشاهد التليفزيون حيناً آخر، وإلى جانبنا سني يلتمس الدفء مثلنا ويهرّ، حتى بدأ يهمين علينا النعاس، فقال زوجي:

ـ أنزلي القطّ من على السرير وخليه ينام على السجادة بالأرض، لأن نفسه مضرّ وصوته خرم أذني.

قلت:

ـ لا.. حرام. خليه ينام عند الرجلين لأن الليلة بردها شديد جداً.

ـ لا. خليه في الأرض أفضل. قال.

كـان النعاس قـد هزمني تمامـاً، فلم أقـو على مزيد من الجـدل، فأزحت القطّ بصعـوبة إلى الأرض وطلبت منه بصوت ضاع في برزخ السبات:

ـ نام عندك يا سني. وإياك تطلع لفوق.

يبدو أن القط امـتثل لطلبي وقتـاً قليلاً، ربما حـتى معن من نومنا تمامـاً، لأني أفقت بيـنما كنت أتقلّب لأجـده إلى جـانب رأسي على المخدة، فأمرته بغيظ:

ـ سني. خليك تحت وإياك تطلع هنا. فاهم؟

ثم سحبته إلى الأرض مرة ثانية.

لم تمرّ دقيقة أخرى إلا وقـفز إلى السرير، لكنّه تأكد هذه المرّة عند الرجلين في نهاية الفراش وهو يموء مستـعطفاً بصوت خفيض، فقلت لنفـسي لا بأس، وتـركـتـه ينام ونمت بعـد أن انزلقت بـكاملي تحت الأغطية ألوذ بها من برد لا يطاق، لا أعرف كم من الوقت مضى وأنا نائمة، لكنّي صحوت على صياح زوجي وهو يزعق:

ـ زفت.. الزفت سني لازم يطـلع برّه. معـقـول يعني ينام فـوق دماغي على المخدة.

كانت لـزوجي موهبـة فذّة تتلخص في قـدرته النادرة على الكلام فور أن يفيق من النوم وكأنه لم يكن نائماً قبل ذلك أبداً.

فتحت عينيّ، كان «سني» فارشـاً جسده على مخدّتي وجانب من مخدّة زوجي ويهرّ برضا شديد.

اغتظت منه ومن زوجي، وقمت فازّة أحمله من على المخدة لألقي به خارج الحـجرة ثم أغلق بابها وأعـود لأندسّ تحت الأغطية دون أن

أنطق بكلمة واحدة.

حاولت النوم بعد ذلك لكني لم أفلح، إذ أخـذ سني يموء متوسلاً من وراء الباب وكـأنه رضيع افتقـد صدر أمه، قاومت جـاذبية نداءاته مراراً وأنا أقول لروحي لا والله عنده «كاريزما».. ثم أخذني النوم في بحوره الـغامضـة مرة أخـرى، أفقت في الصـباح التالي عـلى ضوء خفـيف من شمس بخيلة، وجـدت «سني» في الممر فـور أن نهضت وفتحت الباب، كان نائماً بالقرب من باب الحجرة في الممر، وداعبته.

ـ سني.. صباح الخير يا «سني».

لم يحرك بوقي أذنيه في اتجاه صوتي أو يفـتح عينيه نصف فتحة، مثلما يفعل عادة عندما يكون راقداً، فتركته لأمضي إلى الحمام، لكني وبينما أغلق الباب رأيته يفتح عينيه بخبث ويغـمضهما سريعاً بينما يمد يده الأمامية قليلاً على الأرض.

خرجت من الحمام وسارعت بإعداد الإفطار، لأن زوجي سيذهب إلى المطار في «لارنكا» لاسـتقـبال صديـق قديم لفظتـه مدينة عـربية مجـدداً بسبب نشاطه السـياسي وقـذفت به إلى هنا، لم أنس وضع الحليب لسنى في وعائه بالمطبخ، ناديته لكنه ظل قابعاً في مكانه بالممر دون أن يجاوبني، أيقظت زوجي ودخلنا المطبخ لنفـطر، وأثناء جمعي للصّحـون من على الطاولة بعد أن انتهينا، ودخل زوجـي إلى حجرة النوم ليغيّر ملابسه، سمعته يصيح بعنف:

ـ تعالي.. تعالي بسرعة، شوفي الوسخ سني!

تركت مـا بيدي وجريـت بسرعة إلـى حجرة النـوم، كان زوجي واقفاً، حاملاً مخدتي بطرف يده، ناظراً إليها بتقزز، كانت مبللة كلها

تقريباً بلون أصفر فاتح، صرخت بدوري.

ـ يا خبر أسود.. مخدتي.

ردّ زوجي بسخرية وهو يهزّ المخدّة بيده:

ـ على مخدتك عملها، وعلى كيسُها القزاقيزي يا مدام.

وقفت مبهوتة، أنظر إلى المخدة وكيسها الحرير، وقد تلوثت ورداته زهرية اللون بما فعله عليها سني، شعرت بحنق شديد عليه. بالأحرى شعرت بإهانة بالغة من فعلته الشنيعة، وأنا أردد لنفسي:

ـ يبول على مخدتي، مطرح ما أحط دماغي وأنام.. الجبان!؟

ثم إني طرت خارجة من الحجرة وأنا أزعق:

ـ آه يا كلب، طيب، والله ما أنت قاعد في البيت لحظة واحدة بعد عملتك السودا.. طيّب!

أخذت أبحث عنه تحت الكراسي وفي كل مكان بالبيت، بينما صوت زوجي يلاحقني ساخراً وهو يقلد الرجل الذي كنا قد اشترينا منه الأكياس الحريرية للوسائد من جناح الاتحاد السوفيتي في المعرض الصناعي الدولي بنيقوسيا وهو يقول بعربية فصحى عتيقة:

ـ إنها صناعة يدوية من القز القزاقيزي الفاخر وممتازة جداً، ورسوماتها كلاسيكية تعود إلى القرن السابع عشر.

كانت أكياساً جميلة بالفعل، ورسوماتها المطرزة بخيوط الحرير بالغة الرقة فاشتريناها وإن كانت عبارة البائع الأخيرة قد ذكّرتني بما يقوله أهل قرية «ليفكارا» الجبلية دائماً، عن بضاعتهم المماثلة من المفارش والأغطية، بأن «مايكل أنجلو» هو الذي صممها لهم عندما جاء إلى جزيرتهم القبرصية في القرن الثالث عشر الميلادي.

طردنا «سني» بعـد أن وجـدته فـوراً، ورميت المخدة بـكيسـهـا القزاقيزي في الزبالة، لكن مخدة «سني» هذه، كانت قد دفعتني بعيداً بين المخدات، فـرحت أغوص في تلك الحمـيميـة الغريبـة التي تشدنا دومـاً إلى مخـداتنا، ألأننا نضع عليـها عند كل مـساء وردات آمـالنا وأحلامنا؟. أم لأنهـا الصدر الحنون، تلوذ به دمـوعنا، وقت همومنا وحزننا؟. أم لأنها هي وحـدها ولا شيء آخر، التي يتردد عندها رنين القلب ووجيبـه، إذ نأخذها إلى صدورنا، متـشبثين بها كـجدار قلعة يقف على أبوابهـا الأعداء، وجـدتني أتأمل المخـدّات، وقد أخـذتني حالة إشـراق، فانبثـاق من حشايا الذاكـرة، ومتكآت الروح التـائهة، لأستـعيد من بين مـخدات الآخرين ومـخداتي، أيامـهم التي كانت، وأيامي.

بنخلة ألعب اليوجا

أخذت أقطر في عيني الدواء، فثمة غشاوة تضايقني، لا يماثلها إلا ضبابات الروح وانكسارات النفس، وبينما النقطة الملحيّة اللاسعة، تُباغت فتحة الرؤية، فينغلق الجفنان عليها بشدّة كهجوم مضادّ سريع، واتتني الفكرة أخيراً، وكان أن الحّت دون أن تشفّ أو ترقّ، أو تتعطف أو تتكرم كقطرة غيث على شفاه من الظمأ، وهاهي: سؤال ناصع، ناصح، كتقارير خبراء البيئة - يقول لماذا لا يكون لك مثل أعلى في الحياة؟ كنت ما أزال أغمض عيني حتى يغيب اللسع، لكن الإغماض جرّني إلى سكّة الانجلاء والتجلي، وهو مبتدأ العكوف وصولاً إلى الكشوف، وها هو وميض الأفكار يأتي، فيطلّ فيشعّ فيفصح، فيكشف، بينما القطرة تتجرد داخل عيني، وقد رفدتها دموعي، حتى فاضت فسال بعضها من بعضها على خدّي.

رحت أستعرض في مخيلتي المرشحين المحتملين لمثلي الأعلى، أبي؟ لا أعرفه، فلقد غادر الحياة مبكراً دون أن أراه، فلأعتذر عن تنحيته كمثل أعلى لهذا السبب وأسباب أخري أدركتها مؤخراً. أمّي؟، لقد فطمت منها منذ زمن بعيد. معلّماتي ومعلمي في المدرسة والجامعة أعتذر لهن ولهم جميعاً، فرغم تقديري وتوقيري لدورهم

المحدود في تعليمي، فـإنني قد تجاوزتهم الآن، ربما بحكم الزمن، أو بسبب أنني لا أتذكرهم كثيراً.

إذن، فلأكن أكـثر حداثة ومعـاصرة، ولأفتش في نخبـتنا الغرّاء، ولكن هل لدينا الآن نخبـة حقاً؟ لو كـان لدينا نخبة، لما قال الشـاعر أحمد فؤاد نجم: «الإذاعة مستباعة والوطن عاوز كلام»، لكنّي أفتّش، علّني أجد مـا أبحث عنه هنا أو هناك، أتأمل، أبحث. فـلا أجد إلا عصـابات من الاقتصاديين، وشـراذم مثقـفين، وانتهازيين سيـاسيين، ويسار «ستربتيز» ـ وأعتذر للعجمة التعبيرية فرقباء اللغة لن يغفروا لي استخدام أي من توصيفـات قاموسنا اللغوي العريق بما يمكن من إزاحة تلك العجمة بعربيّة صحيحة ـ.

إذن سأضطر لاسـتيراد مثل أعلى من الخـارج، فنحن لـم نعد ننتج أمثلة عليا، ربما بسـبب الخصخصة، أو العولمة، والتي جـعلتنا نستورد كل شيء ابتداء من رغيف الخبـز، وحتى الأفكار المخبوزة بالسمّ، في الحقيـقة لقد حرت، أو داخلنـي شعور يتراوح بين الإحـباط واليأس، وما بينهما من مسافة وعلى نحو مؤقت وحـتى إشعار آخر، سأسميها هزيمة.

لديّ سلحـفاة أو «فكرون» صـغيـر كما يقـول التوانسـة، والاسم يعجبني لأنه شـديد الارتباط بموضوعي، وهذا الفكرون أو الفكرونة ـ والله أعلم ـ أراه بالصدفة في البـيت، وبين الحين والحين، مثلما أرى جيرانـي، مع فارق واحد، هو أن الفكرون يهز رأسـه أحياناً متلفـتاً، فأظن أنه يحييني، بينما ينظر إليّ الجيران شذراً، وأبحلق فيهم بدهشة كلما تصادفنا عند مدخل أو على سلالـم العلبـة الكرتونية القبيحة التي

نقطن بها جميعاً وتُسمى عمارة.

عندما فتحت عيني بسلام بعد انتهاء واقعة القطرة، وجدت السيد فكرون يطل برأسه من تحت الكنبة المقابلة لي، وفي لحظة، خطرت لي فكرة أن أتخذه مثلاً أعلى لي في التفكير والتأمل: ألم يطلق عليه التوانسة إسم فكرون؟ ثم إنّه ـ وربما هذا ما يميزه ـ يعرف حدوده، لا يتطفل، متطلباته قليلة، يستطيع مواجهة المجتمع الاستهلاكي بكل حزم، لايلوّث البيئة، ولايعتدي عليها وتبقى علاقته بالزمن علاقة عبقرية محيّرة فهو الكائن الأكثر صموداً لهذا الاختراع الإنساني المثير، فهو لا يلاحق الزمن ولايرغب للزمن أن يلحقه.

كنت قد تحمست جداً للفكرون، وأخذت أسترسل في خصاله ومزاياه حتى أنني فكّرت ـ وأنا التي لاتكتب الشعر ـ أن أسطّر قصيدة عنوانها «في مدح فكرون» ربما كان مطلعها:

يمضي الزمان لكن حالك سرجا

لاهو ذاهب عنك ولا إليك يجيء

غير أن الفكرون البائس، سرعان ماردّني إلى المسافة بين الإحباط واليأس، فبينما أنا أنظره، ممعنة فكري فيه بحثاً عن كلمات شعريّة أسطّر بها بقية القصيدة. إذ به يتراجع برأسه مختفيا في عظاءته، وقد ظنّ «العبيط» أنني أضمر له شراً، وأنني بفعله هذا سأظن أنه حجر في صحراء، أو شقفة من صخر. بصراحة تراجعت عنه، فهو في الجدّ الأدني جبان غير قادر على المواجهة، وميله الفطري الدائم للانزواء والعكوف ما هو إلا حالة مرضية تستدعي تدخل الطبّ النفسي.. رغم علمي بأنها حالة لن تؤول إلى انتحار. لا. لن أدّعُكَ

فكروناً ولتكن سلحفاة وسأحتفظ بشعري لمن يستحقّه أيها القاسي العنيد.

كنت بدأت أقلق وأتوتر، وقد شعرت أن لا جدوى في العثور على مثل أعلى مناسب، قلقي هذا، دفع إلى المقدّمة، بالسؤال الذي طالما حاولت تجنّبه طوال الوقت: لماذا تبحثين الآن عن مثل أعلى، بعد كل هذا العمر، وكل هذا الزمان؟ لماذا لم تفعلي ذلك وأنت طفلة، أو وأنت شابة صغيرة؟ أنت لم يكن لك مثل أعلى أبداً، لقد سرت في الدنيا بمَثَل نفسك، فلماذا الآن، هذا الدأب والبحث، والقلق والتوتر، لإيجاد ما ليس من السهل أن يوجد؟، ربّما تحاولين تأمين أطفالك، تشيرين إلى نموذج يتطلّعون إليه، ليكونوا كما كان، أو لعلك تبحثين عن سكينة روحية وطمأنينة تطمئنّ إليها نفسك وقد تجسّدت سواء بشرياً خيّراً وحقاً وجميلاً؟ لا أدري.. وهل كل من قال أدري فقد درى؟، أياً كانت الأسباب، فما أتيقّنه الآن هو أنني أحاول إيجاد مثل أعلى لي، وليكن ما يكون، وهكذا عاودت البحث من جديد.

قلت، فلأفتش عن مثل أعلى في الدنيا الواسعة، فيما وراء البحار، في النساء بالطبع، لا.. من بين الرجال أيضاً، حتى لا أتهّم بالنسوية البغيضة، وضيق الأفق وكراهية الرجال وتعريض الأمن القومي للخطر. ألا يكفي أنني لست نخبوية الطابع، ألا يكفي أنني لست النموذج الأمثل للمثقّفة العضوية التي تؤثر التواجد بين المثقفين الرجال، دون النساء، بينما لاتفارق السيجّارة شفتيها ولاتكف عن الحديث بصوت عال؟ ألا يكفي أنني لا أنتمي إلى شلّة أو جماعة، تمسك بمفاتيح الحداثة أو الوطنية، لتفتح بها أبواباً لمن تشاء وتطرد منها

من تشاء؟، الا يكـفي كل هذا؟ بصراحة ولأعـترف، فأنـا ضعيـفة، والإرهاب مؤثّر حـقاً، لذلك سـأبحث عن مثلي الأعلـى بين الرجال كذلك، ثم إن دخول الرجال مسابقة مثلي الأعلى، سيتيح لي اختياراً أفضل فالـرجال قوّامون ليس على النسـاء فقط، ولكن على كل شيء في هذه الدنيا، على السـماء، والأرض، وكل الكائنات، وباختـصار على التاريخ والجغرافيا، وبمناسبـة التاريخ، فأنا لن أتقيد بمرحلة زمنية معيّنة، وإن كنت أفضّل التاريخ المعاصر، وربما التاريخ الراهن، أو ربما التاريخ الآني، وقـد أفضل اخـتيار مـثلي الأعلى منه، ربما لأننا على وشك الخـروج منه، ليس لنكون مـتفـرجين فـقط، ولكن لكي نكون متفـرجاً علينا ككائنات متحـفيّة عجيـبة، أو ليست السيـاحة نوعاً من المتحفية، وقد حوّلت الأوطان والشعـوب القديمة إلى متاحف مفتوحة حـيّة تدب عـلى قدمين؟ فكّرت فـي ذلك انطلاقاً من كـل الضغـوط الإرهابية، حتى أنسى هذه التسوية البغيضة، لكني في الحقيقة وجدت مخرجـاً لذلك المأزق، قلت سأبحث عن مثلي الأعلى ضـمن حدود النساء الفـاضلات، هذا حلّ سعـيد لكل الأطراف، فنحن الفـضيلة، وحياتنا كلها متـمحورة حول الفضيلة وخصوصـاً فضيلة مثلث برمودا الخطر والقابع في النصف الأسفل من الجسد، حتى برامج الأطفال في إذاعتنا التي تربينا عليها، ومازالت تتربي عليـها الأجيال، تقدمها أبلة فـضيلة منذ أربعين سنة. إذن فـلتحـيا الفـضيلة ولنـنحني للفضـيلة. والحقيقة أنـني بحثت وبحثت فلم أجد خلال عصرنا السعـيد هذا غير مارلين مونرو لتكون المثل الأعلى للفضيلة.

لكن المشكلة في هـذا الاختـيـار، كانت المـرايا لماذا ياربي خلقت

المرايا، لو لم تكن هذه المرايا لكان الأمر قد سار على ما يرام، ولكانت المرأة التي عشقها العالم بداية من رؤساء وكتاب مرموقين وحتى أصغر مراهق يمارس العادة السرية وعيناه مغمضتان على صورتها، لكانت هذه المرأة هي المثل الأعلى، أو ليس أدلّ على فضيلتها العميقة أنها انتحرت، قررت مغادرة هذا العالم وفضلت على فضيلته المتدفّقة عالماً آخر بلا فضيلة؟

فتحت التليفزيون، بينما بقيت أفكر، يا الله! إنها السيدة أولبرايت، أجل مادلين أولبرايت تتنقل برشاقة العصفور، رغم التسعين كيلو التي تحملها، بين عواصم الدنيا وعواصم الشرق الأوسط بلغة الاستعمار، المرأة والحقّ يقال غاية في الجدية والنشاط، وهي متجاوزة مسألة المثقفة العضوية والنسوية ضيقة الأفق، ولا تكف عن مجالسة الرجال. أهمّ الرجال: ملوك، رؤساء، سلاطين، طغاة، سماسرة شعوب وبائعو أوطان أو مؤجروها بالعفش أو بدون، لكن أهم ما في أولبرايت من وجهة نظري ركبتاها، فهي حتى في أشد لحظات المفاوضات حرجاً وحساسية، لا تكفّ عن كشف ركبتيها السمينتين، والجميع يوقّع على ما تمليه من اتفاقيات، رغم هاتين الركبتين، بل أجزم أن بعض من يوقعون، ربما كانوا في الأصل يبصمون، والغريب أنهم يوقعون رغم أنف الشريعة، والطبيعة الخاصة للمجتمعات الشرقيّة، التي قد تمنع المرأة من قيادة سيارة أو السفر دون موافقة من زوجها تقدّم للجهات المختصة، ورغم التحفظ على اتفاقيات التمييز ضد المرأة، وحقوق الإنسان. لكن المشكلة في اختياري لأولبرايت، ناجمة عن عدة مشاكل، ليس أولها كراهيتي

لأولئك الذين يوقعون لها، وغيرتي منها لأنها تجبرهم على ذلك، وأنا لا أستطيع إجبار ابني على شرب كوب لبن كل صباح، لكن المسألة في الحقيقة أبعد، فالسيدة أولبرايت كشرة، لاتبتسم أبداً، وهذا شيء أنكره عليها خصوصاً في عالمنا الذي لا يدعو إلى الابتسام فقط ولكن إلى الضحك والقهقهة لفرط ما هو بائس وساخر.

السبب الأعمق، هو أن السيدة أولبرايت متحيّزة ضدّنا كشعوب عربية، وهي في الحقيقة رمز من رموز الإمبريالية المعاصرة، أجل أقول إمبريالية ولا أخجل، لأني قديمة ولست حداثية، بل وأذكركم بأن كل الإمبرياليين نمور من ورق، وإلا لو كانوا نموراً حقيقة فلماذا لم يلتهموا الصين؟! طيّب: الصين صعبة الابتلاع.. ابتلاع مليار من البشر قد يؤدي لعسر الهضم ـ فما بالكم بالبسكويتة الهشّة كوبا.. إنها ستذوب في أفواههم ذوباناً. تقولون التهموا الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية. أجل. إنهم هناك لم يكونوا قد قرأوا كليلة ودمنة، لم يقرأوا «أكلت يوم أكل الثور الأسود»، ولم تصل إليهم قصّة «مدينة النحاس» في ألف ليلة وليلة، ولو كانوا فعلوا، لما صاروا في ظل غواية الكوكاكولا وأحضان الانفتاح للإفلات من ذراعي البيروقراطية القابضة. وقبل كل ذلك.. أنا لا أبلع أولبرايت لأنها بلاعة أرض ومدمنة مستوطنات، ربما لأنها جاءت من أكبر مستوطنة وهي نيويورك، إنهم يبنون مستوطنات، والسيدة أولبرايت تتجاهل، أو تشجع من يقولون سنبني مستوطنات من النيل إلى الفرات، كيف أبلع هذا؟!

ياربي.. أين أجد مثلي الأعلى، لقد بتّ في أمس الحاجة إليه يقولون إن الزلازل تحدث الآن في أكثر مناطق العالم كثافة بالسكان،

ولكن ماذا عن زلازل الروح، أظن أنها تحدث في أكثر مناطق العالم انحطاطاً وسخافة، إنها السخافة وليست الكثافة، أليس المثل الأعلى محاولة لمواجهة الانحطاط والسخافة؟ مخرج للروح من يأسها وقد وجدت ما يمكن الرهان عليه؟ أن يكون هناك كائن يستحقّ التوقف عنده والاحتذاء به والثقة في إمكانية نهوض الروح، رغم ما حدث في البوسنة والعراق، وجنوب لبنان وتيمور الشرقية وبلدان أفريقيا التي تحولت إلى البرازافيل، ليس بسبب اللغة ولكن بسبب الشراهة المتزايدة للنوع الغربي تجاه مصّ الدماء وتدمير البيئة؟

رحت أحدّق في الحائط المواجه لي بينما لازلت أجلس مطرحي، أحاول تجاوز واقعة القطرة. على الحائط لوحات وصور لفنانين أحب أعمالهم لدرجة أنني قررت أن يشاركوني تفاصيل يومي من على الحوائط، وكنت قد علّقت بينهم رسماً صغيراً لابني، هو نخلة رائعة حوى جذعها كل ألوان قوس قزح السحرية وتطايرت سعفاتها بعيداً في السماء راسمة أقواس نصر خضراء، بينما تدلت أسبطة التمر منها حمراء كقلوب نابضة بالحب.

قلت: ياله من طفل، ذلك الذي اختار النخلة دون سواها ليرسمها، فها هي سامقة الجذع، عالية دون استعلاء، مترفعة باستقامة، أصيلة وقد دفعت جذورها إلى أعماق الأرض، وثمة ذلك العطاء الأحمر البهيج، عطاء مجيب مترفع عن السؤال، يقدم ولا يأخذ ثم هي الامتناع السهل بالسمو والعلو، والصلابة الممكنة بالقوة والاحتمال.. ما أعظمها من خلق لخالق ترفّع عن كل مخلوق.

فكرت بالنخلة، إنها تتوارى الآن خلف كتل الإسمنت العالية

المزروعة هنا وهناك، قد يضيعها زحام المدن السخيفة وانشغالات الحياة الكثيفة، لكنها ما زالت تواصل الحياة بإصرار أو ليس أدلّ على إصرارها من أن طفلاً يأكل الكنتاكي ويشرب الكوكاكولا ويذهب إلى سوبر ماركت كبير اسمه مدرسة، يرسمها دون سواها من خلق الله، بينما هو لم يبلغ السابعة بعد.

ستكون مثلي الأعلى نخلة، وشعارى سيكون نخلة ـ لاتنزعجوا لن أشترك بهذا الشعار في تمثيلية الانتخابات الديموقراطية ـ ورياضتي الروحية ستكون بها وقد تمثّلتها كمعين لي على مواجهة جارتي التي زرعت زهور البلاستيك في أصص أمام شقتها، والصفحة الأولى في الجريدة، والتي ينسون أن يكتبوا عليها كل يوم صفحة الوفيات، وستكون سندي الروحي لمواجهة نوادي المنتفعين المتربّحين ببؤس الوطن وشقائه تحت دعاوى حقوق الإنسان وحقوق النساء، ولمواجهة النقد المسمٌد لنصوص بائسة لاطعم ولا لون لها ولا رائحة كفواكه هذه الأيام، وللابتعاد عن كل الحروب الصغيرة الحاجبة عن الرؤية المشهد الأهم، المشهد الأعمق لحياتنا الراهنة لا. . لن تكون النخلة سبيلي إلى رياضة الروح فقط، بل ستكون سبيلي إلى الكتابة، فلسوف أظل أكتب دوما بروحها. . روح النخلة.

هالات سوداء أسفل العينين

لم نكن نرتاح لها عادة، فهي حادة التـعامل، جافة، نافرة، تصد وقد لا ترد كلما تحـدثنا إليها، تجلس على المقاعـد الأخيرة منزوية في حجـرة الدراسة عادة، دون أن تتجـاوب مع المدرّسين والمدرّسات أثناء الدروس. بعضهن كن يبغضنها بالفـعل، أما أنا فقد بقيت زمناً حانقة عليها، فقـد أقرضتها ربع جنيه ذات مـرة، وقت أن كان الجنيه يعادل عشرين مرة جنيه هذه الأيام، ولم أسترد قرضي أبداً.

كانت معي في المدرسة الابتـدائية، ثم في المدرسة الإعدادية، وفي الفصل نفســه دائماً، فاسمي واسم أبي يبدآن بالحـرفين ذاتهما اللذين يبدأ بهما اسمها واسم أبيها: س.أ، وقد يفسر ذلك التاريخ الإجباري المشـتـرك لنا، لماذا آثرت الاقـتـراض منّي دون سـائر الزمـيـلات في الفصل، وربما قـد تكون هناك أسباب أخـرى لديها لم أعرفـها أبداً، وعندما أفكر لماذا سارعت بإقراضــها المبلغ أقول لنفسي، إن هذا الربع كان بمثابة عربون مودة من طرفي، ومحاولة لاختراق المستحيل الكامن فيهـا، كما كنت أرى وقتهـا، لكن هيهات مثلما يقـولون، فقد ظلت كما كانت دوماً: باردة الحسّ، جافّة الكلام شحيحته، لا تبتسم أبداً، لهـا الهالات السـوداء العميـقة دومـاً أسفل عـينيهـا الداكنتين، ذات

النظرات المترفعة الساخطة المرسلة بعيداً، وكأنها تستخسر النظر في الواقف أمامها أو محدثها، وقد اضطررت للحديث.

وقد تأكدت أن لا أمل في مودتها، ولا رجاء في لين مشاعرها، بعد ذلك اليوم البعيد الذي قتل فيه الأفريقي لومومبا، فقد كانت هي الوحيدة بفصلنا التي لم تذرف دمعة واحدة عليه، بينما بكينا جميعاً، بل وهاج بعضنا وصرخن، خصوصاً وقد رأينا صورة امرأته تطل علينا من الصحف، عارية الصدر، تسير بين أطفالها بثديين متدليين حتى قرب سرتها، (وكنا لم نر شيئاً مثل هذا من قبل)، وهذه الواقعة هي التي حسمت أمرها بالنسبة لنا، إذ ظلت رغم كل ذلك الحزن الصاخب المحتج حولها، جالسة بهدوء على مقعدها المدرسي، منهمكة في عمل واجب التاريخ، مفضلة ذلك على مشاركتنا غضبنا على تشومبي القاتل الخائن الذي رحنا نلعن سافل سافلين جدوده، منددين بالاستعمار وداعين لأفريقيا السوداء بأن تعيش. تعيش. تعيش.

مضت شهور بعد ذلك على شهر مارس زمن إقراضي ربع الجنيه لها، دون أن ترد لي حقي، حتى انصرم العام الدراسي وغبنا في العطلة الصيفية، وفي بداية العام الدراسي الجديد، قالت لي إنها سترد المبلغ عندما تسنح لها الظروف، ثم صرّحت تصريحاً بدا خطيراً لي وقتها، إذ قالت: إنها ترغب في تقديم شيء إلى زوجة أبيها في عيد الأم. «رغم كل شيء».

حاولت استنطاقها بالمزيد، وقد تعاطفت معها بعد «رغم كل شيء» هذه، لكنها لم تزد حرفاً وتركتني واقفة، وذهبت لأمر من أمورها

بفناء المدرسة، بعد أن هزت رأسها رافضة الرد على أي من أسئلتي. رحت أتابعها بنظري وهي تمضي بعيداً، وأتأمل رأسها الغامض العنيد الذي لا يمكن اختراقه والكشف عما يدور به من أفكار أبداً، ذلك الرأس المكلل بشعر أسود ناعم، كان الشيء الوحيد اللين الحنون فيها، وقد التمع تحت الشمس وتوهج لأنها تشطفه بعد كل غسيل بماء تضيف له قطرات من عصير الليمون، يمنحه كل ذلك الألق والنضرة، كما قالت لنا باقتضاب عندما سألناها عن ذلك ذات يوم.

بقيت حانقة عليها بسبب ضياع مالي، لكن لم يمضِ إلا زمن قليل حتى انقلب حنقي إلى أسف، وأسفي إلى ندم، فقرب نهاية العام الدراسي وقبل الامتحانات بوقت يسير، غابت عن الفصل ذات الهالات السوداء، وفي النهاية دخلت علينا مدرسة اللغة العربية، ذات يوم، لتقول لنا إنها لن تعود إلينا أبداً لأنها ماتت منذ أيام، ولم تعلم إدارة المدرسة بخبر موتها إلا صباح ذلك اليوم فقط.

كانت الصدمة عنيفة، وقد تكلل غموضها بالنسبة لنا بهالات أخرى من غموض، غموض الموت الذي لا رادّ له ولا أمل في فض أسراره، بكى معظمنا، وبكيت أنا أكثر، وقد شملتني مرارة، وشعور عارم بالإهانة، فقد أخبرتنا مدرّسة اللغة العربية أن زميلتنا ماتت بعد أن صدمتها سيارة مسرعة عند الفجر قرب بيتها. إذن فلقد كانت خارج بيتها حتى الفجر، أي فتاة تلك؟ وأي بيت هذا الذي يسمح لابنته أن تظل بعيدة عنه حتى ذلك الوقت وهي ـ مثلنا ـ لم تبلغ الرابعة عشر من عمرها بعد؟

أخذتنا الدهشة وصُدمنا جميعاً، صدمتي ودهشتي كانت أعظم من

دهشة الجميع، وزاد حنقي عليها رغم موتها، فهي لم تكن بحاجة إلى ربع الجنيه، واحدة مثلها ماشية على حل شعرها لا يمكن أن تكون بحاجة إلى مثل ذلك المبلغ التافه من النقود، ثم إنها كذبت وادّعت أنها ستقدم شيئاً لزوجة أبيها، وتمنّيت أن تُبعث حيّة من جديد لأريها كيف تكون عاقبة كذبها وخداعها لي: تلك الفاجرة، اللصة، وكم أنا حمقاء، ضعيفة وقد صدقت روايتها عن زوجة الأب، وبقيت أراهن على أنها ستعيد لي نقودي ذات يوم، عندما تسنح لها الظروف كما قالت لي.

لكن عندما عدت إلى منزلي بعد نهاية اليوم الدراسي، وأثناء تناول طعام الغذاء مع أسرتي، قال أبي موجهاً الكلام لي دون الجميع:

ـ مسكينة زميلتك. صدمها لوري بمقطورة في الشارع.

رفعت رأسي عن طبقي بدهشة، وازدردت ما بفمي من أرز بالملوخية وقلت بسرعة:

ـ غريبة. أنت عرفت بالموضوع!؟

ـ آه. قال. ثم أضاف: مكتوب في الأهرام.

تركت الطعام، جريت إلى الجريدة، قلبتها بسرعة حتى وجدت صفحة الحوادث، راحت عيناي تجولان على العناوين: «مصرع طفل سقط في بالوعة»، «يطعن زميله بمطواة بسبب حب فتاة»، «يختلسان ألف جنيه من خزينة شركة»، و.. «مصرع فتاة صدمها لوري»، وتحت الخبر:

«بعد أن انتهت من مذاكرة دروسها مثلما اعتادت أن تفعل كل ليلة تحت عمود النور على الرصيف المواجه لبيتها، وبينما هي عائدة قبيل

الفجر، صدمت سيارة لوري بمقطورة التلميذة... بمدرسة... (١٤ سنة)، وقد قال أخو الفتاة الصغير أثناء التحقيق إن أباه وزوجته كانا ينهيان الفتاة عن السهر وإضاءة الكهرباء في البيت، والجدير بالذكر أن والدها يعمل خفيراً في عمارة تحت الإنشاء ويقيم فيها مع أسرته و...».

منذ أن انتهيت من قراءة ذلك الخبر، بقيت أشعر بالخجل والندم والحزن على ذات الهالات السوداء أسفل العينين، حتى هذه اللحظات وربما طوال ما تبقى من عمري.

المشـــهد

كنا مـضطرين للتـوقف والانتظار إذ باغتـتنا إشـارة المرور بعينهـا الكبيرة الحمراء وراحت تدق بعنف، وهكذا تحققت من ضخامة الجنازة عن كثب بـعدما تقـاطر المشيـعون عند المزلقـان، وبدا واضحـاً مدى التزاحم في ذلك الحيز المحدود من سكة القطار.

كان حملة سلال الورد الكبيرة، والموشحـة بشرائط بنفسجية داكنة في مقـدمة الجـميع، لذلك فـقد توقـفوا أولاً، ساندين سـلاتهم إلى الأرض ليخففوا من عبء حملهـا قليلاً، أما النعش الجاثم بثقله على أعناق من خلفهم فقد كان فـاخراً جداً، وقد تسربل بغطاء من الأزرق الحريري الذي راح يسكب لمعاناً بألوان رقاب الحـمام المتدرجة المتداخلة تحت شمس صيفية فاضحة.

تنهـدت، وكنت أتابع متلذذاً انكسـارات النور وألاعيـبه الفـاتنة. فكرت في كل هذا الاحتـشاد حولي، والذاكرة تواتيني من مـخزونها القديم المهمل بمثل فـرنسي عن شيئين لايمكن اخفاءهما : زنى الـفقير وجنازة الغني، بعد قلـيل من الوقت، بدا الجمع متـبرماً لهذه الوقـفة التي لم يحسب حسـابها من قبل، أخذ البعض يـتململ في مطرحه، بينما انشغل آخـرون بهمس سريع تخلله إشعال الســجائر. بدا حملة

النعش لي أكثر ضيقاً من غيرهم وهم يبدلون مراكز الاتكاء على أقدامهم، وينقلون صندوق الميت من كتف إلى أخرى.

رفعت بصري عنهم، لألتفت إلى الواقف بجواري، عندما زفر فجأة، وقد أخذ صرير عجلات القطار الحديدية، يتمدد ويزحف إلى الآذان، بطيئاً رتيباً ثقيلاً، ثم قال لي بنفاذ صبر وقلق : ياه... بضاعة.

هززت رأسي مؤمّناً على ماقاله ولم أرد، إذ كنت قد بدأت أفكر في عبثيّة موقفي خلال هذه اللحظات، فما معنى مشاركتي في جنازة رجل لا أحمل له أي شعور غير الكراهية ؟ لقد جئت للمشاركة في هذا المشهد مدفوعاً بما يمليه الواجب، وتفرضه الأصول، وحتى لا يأكل أحد وجهي - مثلما كان ينصحني أبي دائماً - ولكن أي واجب هذا ؟، وأية أصول تلك التي تجبرني على السير في جنازة نذل بالإجماع، ولص لايختلف عليه اثنان في المؤسسة الشعبية للطباعة ؟ لماذا أقف هنا الآن مع الواقفين لأشيّع «عرفي حلاوة» ذاك الذي لا ذمة له ولا ضمير، الذي باع المؤسسة الشعبية / مؤسسة بأرخص الأثمان وألقى بها في نار الخصخصة، بعد أن صال وجال، وسمسر وقبض، بصفته رئيساً لمجلس إدارتها، وأكبر رأس من الرؤوس المتحكمة فيها ؟

أُدرك تماماً أن جُل الحشد الرهيب من عمال وموظفي المؤسسة يكرهونه مثلي تماماً، بل إن بعضهم كان مستعداً - لو واتته الفرصة - لقتله أو خنقه بيديه ليقتص منه قبل أن يموت ميتة ربه، فكل واحد منهم ذاق ولابد سطوة عرفي حلاوة المرة، وهيمنته وتحكمه في رقاب العباد. أما أنا فأمقته، ليس فقط بسبب مفاسده المهنية وجرائمه في

المؤسسة، ولكن مـقتي له خاص جداً، فهو المسـؤول المباشر عن نقلي من قطاع الصيانة إلى قـسم العلاقات العامـة، بالأحرى هو من قتلني بالحيـاة، وبجرة من قلمـه الأسود البغـيض، فأنا مهندس مـيكانيكي ناجح، هوايتي الحقيقية في الدنيا هي فك وتركيب الآلات، وقد كنت طوال فترة عملي في قسم الصـيانة قادراً على إصلاح أصعب الآلات وأعقدها، كنت ألهو بهـا كما يلهو طفل صغير بلعـبته، لكن «عرفي حلاوة» أبعدني عن عالمي الأثير، ووضـعني على الرف بعيداً في قسم العلاقات العامة كعبوة مـعافة من الجبن الفاسد في محل للبقالة، لأنه في الحقيقة لم يكن راغباً في إصلاح أية ماكينة، حتى يبيض ويصفر، ويبيع الآلات الممكن تشغيلها وإصـلاحها على سبيل الخردة، ويكسب من وراء ذلك ذهباً. لكن ماذا حـملت معك إلى الآخرة من كل ذلك ياعرفي حـلاوة ؟ ماذا حـملت معك من كل الأموال التـي سرقتـها، وأكلتها بالحـرام ؟، أنت لم تجر معك ـ وإلى الأبد ـ أي شيء من كل هذا، غير المقت والبغض والكراهـية، وهذا هو كل ما تبقى منك الآن وحتى النهـاية، فلسوف تزول وتتبـدد وتتحول إلى حـفنة من الرماد، بعـد أن تنتفي جـثـتك السمـينة المتـرهلة، التي طالما طالعناها تحـمل سحنتك الكريهة وهي تطل علينا في المؤسسة كل يوم.

تنهدت بأسى، ورحت أشـاغل روحي الممرورة بالنظر إلى طليـعة الجنازة الواقفـة تنتظر مرور القطار، مـثلما ننتظر نحن الواقفـون قرب المؤخرة. كان الرجال ذوي بـزات داكنة أنيقة ووجوه مفعمـة بالحيوية، تبـدو عليهـا دلائل الخيـرات والنعيـم. جلت ببصـري على الذين أنا بينهـم، كانت ملابسـهم متواضعة جرى ارتداؤها كيـفما اتفق، وبدت

لي ملامحهم متشابهة إلى حد بعيد. اكتشفت أن بعضهم منشغل بالتفرس في نساء المقدمة، نقلت ناظري إلى حيث يتطلعون. ميزت زوجة المتوفي بين جماعة النسوة المتكومة إلى أقصى اليمين، بدت لي على البعد أكبر في العمر قليلاً وهي متشحة بالسواد. فكرت أن المتطلعين إليها مثلي، ربما كانوا يفكرون فيها خلال هذه اللحظات كواحدة من الامتيازات الأساسية التي يحصلها المرء عندما يكون رئيساً لمجلس إدارة مؤسسة كبرى كمؤسسة الطباعة الشعبية، ولكن أين هي منه الآن؟ وأين هو من أي امتياز دنيوي آخر، طالما نهل منه، وتمتع به ذات يوم؟

فكرت: إن الموت يشابه هذا القطار العابر الآن، فهو عندما يجيء ويعبر، لا يملك الإنسان إلا التوقف والامتثال له. إنه هو وحده، لا الحياة، القادر على تحديد القيمة الحقيقية للبشر.

بدأت القاطرة تسرد عرباتها أمامنا سرداً طويلاً مملاً، تنحنح البعض وحاول آخرون سعالاً مفتعلاً يائساً، ربما كنوع من الاحتجاج الفاشل على جبروت القطار، أما أنا فبدأ ضيقي يتصاعد بمصنع الغاز الطبيعي الواقف إلى جواري يزداد بعد أن طالت فترة التشغيل - إطلاق النواتج - حاولت الابتعاد عنه قليلاً وأنا أقول لنفسي آه لو لو يكف العمال عن تناول الفول وكميات البصل الرهيبة في الصباح ؟.

أخذت أتحسس أنفي وأتنهد محوقلاً، وكنت قد فكرت في الانسحاب من المكان كله إلى الخلف، لكنه كان مكتظاً على نحو لا يمكن تصوره..

شعرت بعطش وجفاف في الحلق، وقلت لروحي : حتى جنازتك

ياعُرفي حلاوة ثـقيلة على القلب كما السم، إلى آخـر لحظة في الدنيا وأنت مصر على مضايقتنا وقرفنا، أكان يجب أن تزهق روحك وتموت في هذا اليوم الحـارِ من أغسطس الخانق الرطب ؟ أكان لابد أن نـسير وراءك بكل هذا العـرق اللزج المنسـاب منا، تحت آتون الشـمس وقـد ترصدنا من عليائه وراح يشوي أدمغتنا وأقفيتنا ؟.

حاولت مـواساة نفسي، فقـلت : اشغل روحك ياولد بأي شيء، دقائق ويعبر القطار إلى حال سـبيله، ونصل بعدها إلى الجامع فنصلي على الميت ونذهب لحال سبيلنا نحن أيضاً.

بدأت في عد عربات القطار، مراقباً حـركة انسياب العجلات على الشريـط الحديدي، لكن سـرعان ما انقـطع استغـراقي، إذ برزت من جـانب الطريق جنازة أخـرى، بدأت تـتـقدم فـي اتجاه جـنازتنا عند المزلقـان، وكان من الواضح أن مـقصـدها هو مـقصـد جنازتنا ذاته، الجامع القريب في الضـفة الأخرى من مجـرى القطار، حيث الصلاة على الميت.. صـلاة الشفاعـة والرحمـة، قبل الذهاب به إلى مـثواه الأزلي.

كان الـنعش القادم بسـيطاً متـواضعـاً للغاية، فـصندوق الميت من خـشب قديم رديء الصنع، لم يـفلح اللحاف القـطني البالي المفـرود عليه في تغطيـته تماماً، وكان المـشهد مشكّلاً من أناس قـلائل يصعب التكهن بحقيقتهم، هل هم عمال حرفيون ؟ أم باعة جائلون ؟

خلف الرجال، سارت جماعـة من النساء ينتحبن في صخب وراء أولئك الحاملين للميت.

بدا المشهد كله أقـرب إلى مهزلة تؤدى على خشبـة مسرح منه إلى

جنازة فعلية يسير فيها رجال ونساء حقيقيون، وربما واتتني هذه الفكرة، من ذلك التعبير الذي طالعته مرسوماً على وجوه أعضاء جنازتنا، لما استداروا ليستجلوا حقيقة الأمر، إذ كانت وجوههم تفصح عن تساؤل استيائي استنكاري، وكأن القادمين بجنازتهم المدهشة، قد استباحوا حرمة لهم أو غصبوا منهم امتيازاً مقصوراً عليهم فقط.

همس صاحب مصنع الغاز الطبيعي قائلاً لي : يظهر لي أنهم جماعة من المقطوعين، لا إله إلا الله يا أخي.

غمغمت زافراً، وأنا أومئ برأسي وقلت : آه. ورحت أنظر إلى المقطوعين أولئك.

كانوا بدورهم يتأملون موكبنا بكثير من الدهشة والانبهار، حتى أن النسوة توقفن عن الصراخ والنشيج، وأرسلن أبصارهن ناحيتنا بتعجب. كانت نظراتهن الدهشة، المستغربة تشي بتساؤل آخر عن موتهم، وموتنا الذي فاجأهم من حيث لايدرون.

ظل القطار يتهادى على قضبانه بكامل راحته، وئيداً، داهساً الوقت/ وقتنا باستبداد يغيظ، وبعد الصناديق البنية الحديدية الضخمة التي عبرت في البداية، جاء دور الدبابات والعربات المصفحة، والمدافع المحمولة على عجلات.

ظل الناس يوزعون اهتمامهم على القطار حيناً، وعلى بعضهم حيناً آخر، وكان هناك ما يشبه الشعور بالإثارة الخفية المشوبة بالتحدي، يرتسم على الوجوه الآن، وجدتني أسائل نفسي وأبتسم:
•ترى، هل سنصلي على الميتين معاً، أم سينتظر اللاحقون السابقون ؟
وأظن أن الواقف بجواري، كان يفكر في ذلك خلال تلك اللحظات

أيضاً، فعندما التفت إليه، وجدته مطرقاً برأسه إلى الأرض، وقد غاب في تفكير عميق.

في هدوء، ولسبب ما، انسل واحد من المشيعين في مؤخرة جنازتنا فجأة، ووقف بين ناس الجنازة الأخرى في صمت ملتحقاً بها. بدا لي سلوكه، وإن جاء تلقائياً ـ غامضاً بعض الشيء، قلت لنفسي: تعاطف، شفقة، أو ربما محاولة يائسة لكسر الملل، حتى يعبر قطار الحرب الطويل. رجحت أخيراً أن قرب موقعه من الجنازة الأخرى، هو الدافع وراء مسلكه هذا. على أية حال، لم يبد أحد من أصحاب الجنازة الصغرى أي رد فعل حيال وجود الرجل بينهم على هذا النحو المفاجئ، بل وبدا هو نفسه بملبسه وشكله، والتعبير الغاضب الصارم المرتسم على وجهه وكأنه واحد منهم، جاء منذ البداية معهم، ومازال ينتظر عبور القطار.

لم تمر لحظات قليلة أخرى، إلا وكان رجل آخر قد انشق عن جنازتنا والتحق بزميله السابق. وهكذا بدأت مؤخرة جنازتنا تشهد تسرباً خفياً، سرعان ما تحول إلى هروب جماعي ملموس، بدا لي أشبه بلعبة قديمة كنا نلعبها أيام المدرسة، فعندما كانوا يحشدوننا في الفناء والواسع، بمناسبة ما من المناسبات الحكومية، ويبدأون في إلقاء الخطب السياسية الدعائية المملة علينا، كنا نسلي أنفسنا نحن الواقفين في مؤخرات الطوابير، فننتقل من طابور إلى آخر، بينما الخطباء سادرون في خطبهم ومواعظهم السقيمة وكان الأمر يتمخض في النهاية عن طابور طويل واحد في جانب من الفناء، يصيب الجالسين على المنصة بالارتباك والضيق، ويدفع مشرفي النظام العام في المدرسة

إلى نهـرنا، وتهديدنـا بالضرب حـتى نرعـوي، ونعود إلى طوابيـرنا الأولى مرة أخرى.

تذكـرت ذلك وأنا أرقب الشغرات التي تـنفتح وتكبـر وتتـسع في مؤخـرة جنازتنا لتـملأ فـراغ الجنازة الأخرى، حـتى أن مصنع الـغار تركني فجأة وحيداً، وظهر بالقرب من النائحات في الجنازة الصغرى، والتي ما عادت صغرى الآن.

شعرت بدرجـة من القلق والتوتر، إذ بدا لي الفراغ حـولي، أشبه بهوّة انزلقت في داخلها رغماً عني، ووجـدتني أدخل خيمة من الغربة الغامضة، وقـد اعتراني ذلك الشعور الموحش بالضيـاع الذي يلتهمني عادة في كـوابيس ليلية تعاودني بين الحين والحين، فـأرى نفسي فيـما يرى النائم وقد سرت وسط زحام الناس في الطريق، عـارياً، حافياً، بلا هدوم تغطيني وتستر عورتي، أو نعل انتعله كما الآخرين.

حاولت الاقتراب بنفـسي، لأنضم لأهل المقدمة في جنازتنا، لكني لم استـطع، شيء ما كـان يبـاعد بيني وبـينهم، بالأحرى خـفت أن اقـترب منهم، إذ ظننت أنـني لابد سأكـون بشكلي وملبـسي.بينهم، كدجاجـة بلدية، اندست داخل مجموعة مـن الطواويس وقفت حائراً أتلفت حـولي في يأس، اصـطدمت عـيناي بعـيـون الآخـرين الذين غـادروني إلى الجنازة الأخـرى، فـشـعـرت أن نظراتهم تشـجّـعني، تحفّزني، تستحثّني، ووجدتني أرتبك قليلاً، بينما ازدرد ريقي الجاف، لكني في النهاية وجدت قدميّ تتحركان ببطء نحوهم.

قطـــة

ضغط عبد الغني بقدمه اليـمنى على العروة الحديدية لباب دكانه الحصير بعد أن نزع القـفل، وبينما الباب يندفع إلى أعلى إذ بمواء حاد يخترق أذنيه، (ويخترق هنا دقـيقة تماماً) لأن «المياو» الأخيرة من ذلك المواء، كانت حادة، وحشية، مخشوشنة، نافذة الصبر، ومتضرعة في آن معـاً، ترك عبد الغني البـاب، ورفع بصره إلى مصـدر المواء حيث تسامقت الشجرة الخريفية العارية، وقـد قبعت عند آخر فروعها العالية قطة صغيرة دفع مرآها بعبد الغني لأن يرفع حـاجبيه الكثيفين المبيضين بالمشيب إلى أعلى ويقول:

ـ لا حـول ولا قـوة إلا بالله. كِـيف؟... كِـيف؟... كِـيف طلعت لحدّ هناك؟

ظل يردد لنفسه: «كِـيف» بلهجته الصعيـدية مندهشاً وكأن القطة تسلقت برج القاهرة وليس فروع شجرة بونسيانا عجوز داهمها الخريف وعرّاها حتى آخر ورقة فيها.

راح يحبك التلفيحة الصوفيّة حـول رقبته، وإذ بمواء آخر يتصاعد عند قـدمـيـه. ذهب ببـصـره إلى المواء الـطالع من الأرض هذه المرة وسرعان ما خاطب صاحبته قائلاً:

ـ بسـبـوسـة. الله هي قطتك أنت؟ بنـتك؟! طيّب. طيّب. ولا يكون عندك فكر.

تمسّحت القطّة بـقدميه قلـيلاً، ثم لعقت فـراءها بلسانها لعـقات سريعة عصبيّة، بينمـا اندفع عبد الغني إلى داخل الدكان بعد أن أكمل رفع الباب. عاد بعد قليل حاملاً معه مكنسته القش ذات اليد العصوية الطويلة، وراح يثبتها بين فروع شجـرة البونسيانا التي تقف وحيدة في حديقـة الشارع الجرداء. دفع العصـا إلى أعلى قدر استطاعتـه، حتى تتمكن القطة من اتخاذها مـعبراً للهبوط عليه إلى أسـفل وراح يحثّها على النزول وقـد قـبـعت أعلى الشـجرة تراقب مـا يفـعله بتـوجس وخوف:

ـ ياالله. انزلي ويطلي نونوه وروحي عند أمّك في الدكان.

لم تعر القطة الـصغيرة انتـباهاً لما قـاله عبد الغني ويبـدو أنها لم تثمّن جـيداً جهـوده النبيلة الصادقـة المبذولة لإنقـاذها فواصلت المواء بوحشية، مما أضفى على مشهد الشجرة العارية نوعاً من الغرابة، وقد تبدّت من بين فروعها الجرداء قطة رمـادية مجذعة بخطوط رصاصية، ومكنسة من قش الأرز بعصا طويلة.

كانت في الحـقيقـة شجـرة تليق بلوحة من تلك اللوحـات الفنية التي باتت منتشرة في قـاعات العرض بالمدينة والتي يطلقون عليـها ما بعد الحداثة، أو عمل مـركب، يحظى عادة بأرفع الجوائز وينال أعلى درجات التقـدير. وقف عبد الغني في مكانه حـائراً مرة أخرى، وبدا وكأنه يحمل مسؤولية أخلاقـية ليس تجاه قطة الفروع العارية فقط، بل وتجاه أمها الحـائرة التي عادت تفترش الأرض أسفل الشـجرة، وكأنها

تراقب ما سيؤول إليه مصير صغيرتها. خاطبها الرجل هذه المرة قائلاً:

ـ يظهر بايته من امبارح فوق. طيب وأنا عمّال أقفل الدكان آخر اليوم، قلت لك: كلكم جوه. أنتِ وعيالك كلهم. طيب. كيف؟!... كيف طلعت من الدكان؟!

أجابت القطة عبد الغني بإغماض جفونها إغماضات سريعة متلاحقة، وماءت مواءً قصيراً مقتضباً ثم عدّلت من جلستها فوقفت على قوائمها وركّزت اهتمامها على جرادة صغيرة راحت تنط على الأرض، رغم أن مواء ابنتها ظل متواصلاً فوق الشجرة وكأنه صادر عن شريط جرى تسجيله من قبل.

فُتح فجأة شباك في الطابق العلوي في العمارة التي بأسفلها دكان عبد الغني، وأطل منه شاب مشعّث الشعر مازالت على وجهه آثار نوم بادية، وصرخ:

ـ عندي رحلة بعد ثلاث ساعات يا عم عبد الغني وعاوز أنام. شوف حلّ للقطة، كل الليل وهي نازلة نونوه! دلقت عليها مياه ومع ذلك بقيت في مكانها! شوف لها حل. الله يخليك. نفسي أنام ولو ساعة واحدة قبل السفر.

رفع عبد الغني رأسه ناظراً إلى الشاب وابتسم قائلاً:

ـ صباح الفلّ يا أنور باشا. أنا حطّيت لها المقشّة وهي إنشاء الله تنزل عليها. نام ولا تخلي عندك فكر، لكن قبل ما تروح المطار مُر عليَّ. عاوزك ضروري.

فرك الشاب عينيه قليلاً، وحرّك أصابعه وكأنه يعدّ نقوداً، فواصل عبد الغني الكلام:

ـ طيب. إنشـاء الله جاهزة. وعـاوز من نوع آخر مرة أربـعة لو قدرت.

رد الشاب بضيق:

ـ طيب، لما أنزل لك نـتفـاهم. لكـن والنبي يا عم عـبـد الغني خلصنا من لـمّة الـقطط عندك. يكفي واحدة، لأنهم عاملين مـشاكل جامدة وإزعاج شديد. طول الليل وهم نازلين نونوة وخناقات.

كان الحوار الدائر من أعلى لأسفل ومن أسفل لأعلى قد اجتذب آخرين، وبدا أنه مفتتح ندوة صباحية مبكّرة، إذ خرجت الحاجة فتحية إلى شرفتها المواجهة لشرفة الذي لم يعرف النوم طوال الليل، وقالت:

ـ ياحبّـة عيني. كل الليل وأنا سـامعة نونوتهـا، أصلها صغـيرة خالص.

رد الشاب بسرعة:

ـ الغريب أنها طلعت الشـجرة، والشجرة ولا عصفـورة فوقها. حاجة تجنن!

ابتسمت الحاجّة بخبث وردّت:

ـ أصل أمشيـر موسم عُشار القطط يا أستـاذ أنور، والقطط كلها جارية وراء بعضها. لكن يا ترى هل عندك رحلة بكرة إنشاء الله؟

ـ لا. عندي رحلة بعـد ثلاث ساعـات، وأمنيتي أنام ولو حـتّى ساعة واحدة.

ـ بالسلامـة إنشاء الله. الطيـران على السعـودية كمـا هي العادة يعني؟

ـ لا. دبي.

ـ آه. دبي. أصلي كنت قاصدة ترمي لي جواب من المطار لفتفت بنتي بخصوص شقتها القديمة، لأن جارها الفوقاني سافر وساب حنفية المياه شغالة والسقف خرّ عليها. ياالله. بلا جواب بلا كتابة... أنزل وأعمل لها تليفون من السنترال العمومي.

توسل الذاهب إلى دبي:

ـ طيب والنبي يا عم عبد الغني شوف صرفة في حكاية القطّة. لازم أنام فعلاً. حاسس أني منهار.

ـ طيب. طيب يا بني. أقفل الشيش والزجاج ونام و...

قال عبد الغني. لكن حسنية قاطعته لتطرح حلاً حازماً:

ـ لا. اطلبوا المطافي وهي تنزّل القطة من على الشجرة أحسن شيء.

ـ آه المطافي.

رد عبد الغني، بينما سكتت القطة قليلاً، ربما لأنها تعبت من المواء، أو لأنها اقتنعت بأن المطافي هي الحلّ. حرّك صاحب الدكان قدميه العجوزين في خطوات بطيئة تجاه باب الدكان، وتوارى المرتحل بعد ساعة في السماء، خلف الشباك الذي أغلقه بعنف، لا يقل عن ذاك الذي كان قد فتحه به، أما الحاجة حسنية، فربما لأنها أرملة عاقر، ولأنها كانت طابخة وكانسة ومطبقة الغسيل ولا يوجد وراءها أي عمل تعمله في المنزل، فضلت البقاء في الشرفة لتراقب سير الأحداث عن كثب.

خرج عبد الغنى بعد غيبة قصيرة بدكّانه، وراح يعدل من وضع المقشّة على الشجرة، فدفعها إلى فروع أعلى كانت أقصى ما طالته

يداه، وعندما تيقنت الحاجة حسنية من أنه أحسن تثبيتها بين فرعين ولن تقع صاحت من شرفتها:

ـ هه. طلبت المطافي يا عبد الغني؟

ردّ الرجل بضيق:

ـ لا. دوّرت على النوتة الكبيرة المكتوب فيها نمرة المطافي، لكن حسين ابني خبّاها، وحسين رجوعه من الشغل الساعة أربعة.

ـ طيب أطلب ١٤٠ يعطوك نمرة المطافي.

ـ طيب. هي شغلانة ووقف حال على الصبح!

قال، ثم اندفع إلى دكانه، وعاد منه بعد قليل، وكانت الحاجّة حسنية مازالت متمترسة في موقعها بالشرفة حتى لا تفوتها أية تفصيلة من الأحداث، وكذلك ظلت القطة على حالها والتي على ما يبدو اعتبرت المقشة حادثاً عرضياً جرى للشجرة، وبدت وكأنها استعوقت المطافئ فبدأت فاصلاً من المواء البطيء الخفيف كحركة أولى في سيمفونية كلاسيكية، سرعان ما تزايد شيئاً فشيئاً، أما القطة الأم فقد عادت من الدكان في أعقاب عبد الغني مثلما ذهبت من قبل معه، لكن هذه المرة جاءت ووراءها ثلاث قطيطات صغيرة، يؤكد فراؤها الرصاصي الداكن مع اختلافات طفيفة أنها خرجت من بطن الأم، حتى ولو كانت مجهولة الأب.

زعق عبد الغني في الحاجة حسنية وكأنها باتت طرفاً أصيلاً في مشكلة قطة الشجرة:

ـ اتصلت بالمطافي فسألوني عن اسم الشارع، فلما قلته لهم، قالوا لا.،بين الجناين تابع لحي الضاهر وقفلوا السكة.

ـ طيب. اتصل يا عم عبد الغني بمطافي الضاهر.

ـ اتصلت فعلاً وقلت لهم إني اتصلت بمطافي العباسية في الأول، لكنهم قالوا لي إنهم لا يمكن أن يحضروا، لأن الشجرة كما وصفتها لهم واقعة في الجنينة الوسطانية للشارع، والجنينة الوسطانية مسؤولة عن زرعها وشجرها وحنفية المياه فيها المحافظة ذات نفسها، ومطافي الضاهر اختصاصها، في حالات الإنقاذ كانت حيّ الضاهر لا غير.

زفرت حسنية بغيظ وأعلنت لعبد الغني عن غضبها من موقف مطافي العباسية ومطافي الضاهر، وباعتبارها كانت رئيسة قسم الشكاوى بهيئة البريد قبل أن تحال إلى المعاش، فقد أنعش الموقف الحسّ الوظيفي القديم بداخلها فصرّحت لعبد الغني:

ـ والله كلهم عاوزين شكاوى، سأكتب شكوى بنفسي لرئيس مطافي الضاهر، وشكوى لرئيس مطافي العباسية، وسأرسل صورة منها لبريد القراء في جريدة الأهرام. كلام فارغ واستهتار حقيقي!

ردّ عبد الغني:

ـ المهم نحلّ مشكلة القطة وخلاص.

ـ طيّب انتظر.

قالت حسنية، ثم دخلت من الشرفة وأغلقتها، ولم تمرّ دقائق إلا وكانت واقفة أمام عبد الغني في الشارع وقد تسربلت بعباءة سوداء طويلة، كانت زيّها الرسمي الذي اختارته منذ أن انضمت لواحدة من الطرق الصوفية الشهيرة. قالت لعبد الغني أنها ستذهب إلى ابن زوج عمتها من زوجته الأولى، لأنه ضابط في قسم الخليفة وأنها حاولت

أن تتصل به تليفونياً لتحل مشكلة القطة، لكن تليفون القسم مشغول باستمرار لأن الخليفة منطقة مشاكلها كثيرة، ثم أضافت بتأثر:

ـ والله كنت مفروض أروح اجتماع الطريقة بعد ساعة، لكن ياالله. لازم نخلص من مشكلة القطة في الأول. أصلها عاملة خوتة فظيعة! تنحنحت قليلاً وأردفت:

ـ والنبي يا عمّ عبد الغني، أنت لك دلال على الأستاذ أنور، وصّه يجيب لي من الطيارة أو من السوق الحرّة علبة سيجار عاوزة أقدمها لواحد عمل لي خدمة جامدة وطلب مني السيجار. أرجوك قل له يا عم عبد الغني مهما كان سعرها.

ـ صعب. صعب قوي يجيب أي شيء من المطار، لأنهم مشددين التفتيش على المضيفين جامد، بعد حادثة المضيف المُهرّب للآثار. الحقيقة أني طالب من أنور كم شيء أحطّهم مع البضاعة في المحل وهو رافض، أصله مرعوب، والمسألة لا يمكن أن يلومه عليها أي إنسان لأنها أكل عيشه في النهاية.

ـ يا سلام. شوف!

قالت مستنكرة وكأنها لم تقتنع بما قاله الرجل لها، فاستأنفت محاولتها معه:

ـ طيب خلّه يحاول والنبي يا عبد الغني، والفلوس جاهزة. في الحين. معي خمسة وعشرين دولار أعطيهم له، ويرجع الباقي لما يجيب العلبة.

ـ والله يا مؤمنة صعب... صعب... و.

توقّف عبد الغني فجأة، إذ ماءت القطة الأم مواءً عالياً، اضطره

لأن يدير رأسه إليـها وسرعـان ما نظر إلى مـا كانت تشرئب براسـها إليه، ليجـد قطة الشجرة الصغيرة آخـذة في الهبوط رويداً رويداً على المقشة وبقفزة واحدة رشيقة كانت تستقر على الأرض.

ذبابة

عندما يقيّل هو، لابد أن يكون البيت في منتهى السكوت هسّ. هسّ. الأولاد يتحركون على أطراف أصابعهم وكأنهم راقصو باليه، وحسنيّة الشغالة تكفّ عن أغنيات المطربة شادية التي تفضلها وتظن أنها تؤديها أفضل منها، أما أنا فأتحرك بين غرف المنزل وكأنني الهدهد في حضرة الملك سليمان، لذلك ما أن فتح باب غرفة النوم فجأة وسمعناه يصيح وقد هبّ من مرقده، هرعنا إليه جميعاً وسألته بلهفة:

ـ خير... خير... مالك؟

ـ هل معقول؟! البلوة عمالة تطن جنب دماغي من ساعة، وكلما حاولت النوم تقلقني! ألم أقل لكم كلكم إياكم وترك الشبابيك مفتوحة!

ساءلت بدوري حسنية الشغالة:

ـ نشيرتِ الغسيل، ودخّلتِ الطير... مبسوطة؟!

صحح ابني الصغير الذى جاء من حجرته مسرعاً:

ـ طير؟! ها ها ها. اسمه ذباب... ذباب باللغة العربية، الطيور مختلفة عن الحشرات يا ماما.

ـ إخرس! قلت له، ثم لزوجي:

ـ أصل الشارع وسخ. كل البلاوي طالعة علينا من الشارع. في النهار طير، وفي الليل ناموس.

ردّ بسرعة:

ـ الحكومة شاطرة تلمّ الفلوس والسلام. فالحة تخصم ضرائب من المنبع، تلمّ بالملايين والله وحده يعلم ما يفعلونه بكل هذه الفلوس، أولاد الذين، الشوارع وسخة والطرق مكسرة منهم لله.

علّق ابني بسرعة:

ـ أولاد الذين! شتيمة جديدة أول مرة أسمعها!

كنت على وشك نهره لكن حسنيّة أوقفتني قائلة:

ـ طيب لو حضرتك يا أستاذ منصور خطفت رجلك عندنا كنت شفت العجب. المجاري ضاربة من عام أول، وغلبنا نقول للمصلحة وهم ولا هنا، وعملنا يمكن خمسين شكوى ولا جابت نتيجة. على قولتك أولاد الذين ولا سائلين في الناس.

دافعت عن الحكومة لأول مرة في حياتي فقلت:

ـ المشكلة في الناس قبل الحكومة. لأن الحكومة هي الناس، يعني المسؤول الوسخ هو عيل وسخ وأمه لم تعوده على النظافة. طيب شوف يا منصور عبد الغني الخضري ودكانه تحتنا، قشر الخضار مرمي هنا وهناك، وعيدان وعروق البقدونس والجرجير مدهوسة بالأرض. يعني لو لمّ البواقي والفضلات الطالعة من الدكان كل يوم في كيس زبالة يحصل شيء!؟

كان زوجي قد عاد وجلس على السرير، ورأيت الذبابة خلف ظهره مباشرة، فهتفت:

ـ إجري يا حسنيّة وهاتي قتّالة الطير بسرعة.

جرت حسنيّة إلى الطبخ. غابت دقائق فناديت عليها:

ـ بسرعة يا حسنيّة. محطوطة عندك فوق دولاب الغسيل.

ـ لا. دورت عليها ولا حاجة محطوطة فوق الدولاب.

ـ طيب شوفيها عند حسام فوق مكتبه. من يومين كانت معه. وشفته وهو عمال يقتل بها نملة فارسي.

هتف حسام:

ـ النمل الفارسي سموه فارسي لأنه كبير؟

ـ آه. قلت.

ـ هم الفرس كبار؟

ـ بطّل غَلبه!

قلت لأسكته وأنا أتابع بنظرى حركة الذبابة التي بدأت تحلّق بالقرب من السقف وزعقت:

ـ هاتي يا فريدة المكروسول نرشها رشّة وخلاص.

رسم زوجي بحاجبيه علامتي استنكار وصرخ:

ـ مبيدات؟! ألم أقل لكم ألف مرة أنها مضرّة بالصحّة؟! لا. . . وجودها وقرفها أحسن من المبيدات، ما رأيك؟

كانت ابنتي قد حضرت من المدرسة، وبينما هي تفك أزرار قميصها الذي ثبتت عليه شارة صغيرة على هيئة علم فلسطين صرخت بغضب:

ـ هل اشتريتِ مكروسول؟! ألا تعرفي أنه شركة أمريكاني. مقاطعة يعني؟!

قلت بخجل:

ـ لم أكن أعرف أنه مقاطعة. آخر مرة أدخله البيت.

ـ لكني أعطيتك قائمة بأسماء شركات المقاطعة... ألم تقرأيها؟!

ـ حطيتها والنبي يا منى فوق غسّالة الهدوم ويظهر حسنيّة ظنّت أنها ورقة لا لزوم لها ورمتها.

زفر زوجي بضيق:

ـ طيب خلّصوني... خلصوني لأني لازم أنزل بعد ساعة إلا ربع وأروح مكتب المحاسبة. شغل الصبح، وشغل بعد الظهر... أنا زهقت والمصيبة أن لا شيء ينفع!.. يعني كان لازم دروس خصوصية في سبعة مواد يا منى؟!

انهارت منى واحمر وجهها بالغضب:

ـ أنت عارف أنها ثانوية عامة... ثانوية عامة يعني ثانوية عامة. أنا مضطرة للدروس والكلّ عارف.

رحت أنهي المسألة بحسم:

ـ كل مرة نتكلم في مسألة الدروس. خلاص بطّلوا الكلام في الدروس والمصاريف. روحي يا منى خلّي حسنيّة تحط لك الغداء.

لم تردّ حسنيّة إذ كانت قد خلعت طرحتها السوداء، وشنكلت الشيش الخشب وبدأت:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم... هش... هش... هش.

ظلت تطارد الذبابة هنا وهناك، بينما تحمس حسام بدوره فالتقط منشفة بسرعة وراح يشترك في الحملة على الذبابة، وما أن نجحا في طرد الذبابة من فرجة الشيش الضيقة إلى الخارج، حتى تنفست

الصعداء وداخلني هدوء.

ابتسمت حسنيّة ابتسامة المنتصر وقالت:

ـ أحسن طريقة للطير. هشّه وخلاص. نام يا أستاذ منصور. ولا طيرة في البيت كله.

رد زوجي بغيظ:

ـ خلاص. طيّرتم النوم من عـيني. روحي اعملي لي شاي... خليه مضبوط.

رددت بسرعة:

ـ وأنا يا حسنيّة، وإياكِ تحطي لي السكّر.

ريموت كنترول

لم أكن أشعر تجاهه بأي نوع من الارتياح أبداً، فهو إلى جانب كونه شخصيّة غامضة، يبدو لي دوماً ثقيل الروح، سمجاً، تخاصمه البشاشة، ويلازمه التجهّم والعبوس، كلامه بالقطّارة وزفراته تسبق عباراته، ولم أسمعه إلا متشكّياً متبرّماً، يعمل من الحبّة قبّة، ومن الممكن مستحيلاً، وكانت ملامح وجهه قادرة على الجمود حتى في أشد الحالات انفعالاً، وربما كان الشيء المتحرك الوحيد في ذلك الوجه هو بؤبؤ عينه الصغيرة الوحيدة، فهو لا يكفّ عن الحركة في كل اتجاه باحثاً عن شيء غامض لا يعثر عليه أبداً، أما أنفه الطويل الضخم المتناقض مع حجم رأسه الصغير، فتستبين فتحتاه الواسعتان على نحو ملحوظ، رغم الجهد المبذول من شاربه الكثّ المستعار من شعر قنفذ، للزحف على هاتيك الفتحتين وغمرهما بسخاء واضح.

ولطالما اعتقدت، وربما يعود السبب في ذلك إلى تكرار مشاهدتي لأفلام مصرية قديمة. أن «مظلوم» يصلح أن يكون قاطعاً من قطّاع الطرق أو مخبراً سرياً في البوليس، أو حفّاراً للقبور، أكثر مما يصلح للعمل كبوّاب في عمارة صغيرة هادئة كالعمارة التي نقطن بها، وعلاوة على ذلك كله، فإن أكثر ما كان يضايقني منه، هو ضيقه غير

المفهوم والمبالغ فيه من أطفال العمارة، فهو دائم التحامل عليهم والشجار معهم، لا يكفّ عن الشكوى والتبرم من لعبهم عند المدخل، واتهامهم بأنهم يفسدون خلال ذلك النباتات المزروعة بالحديقة الصغيرة أمامها، وكان ينهرهم بقسوة لأنهم يلقون أغلفة حلواهم في كل مكان موسّخين السلالم، وكان زعيقه لا ينقطع وهو يلعن الحلويات ومن اخترعها، رغم أنني رأيته مرة يتلذذ بمصّ قطعة منها على هيئة مصّاصة كان قد قدمها له ابني كريم، ربما على سبيل الرضا، ليتركه يلعب قليلاً عند مدخل العمارة.

لكن عند ذلك المساء الذي جاء فيه مظلوم يدق باب شقتنا، استربت به قليلاً، ومنذ اللحظة الأولى التي فتحت فيها الباب لأجده أمامي وقد خيّل إليّ أنه يبتسم ابتسامة غامضة مغايرة لأحواله ولم أجد مبرراً لها، ثم سألني:

ـ أنا طالع نواحي السوق، عاوزة حضرتك أية طلبات للعشاء، أو أية حاجة من هناك.

استربت أكثر، فهذا مالم أتوقعه منه أيضاً، فلا سوابق له في عرض خدماته دون طلب منا نحن سكان العمارة، وهو عادة ما يتذرّع بحجج وهميّة عندما نطلب منه الذهاب إلى السوق الذي يبعد عن عمارتنا حوالي ثلاثة كيلو مترات تقريباً، فهو تارة يتهيّأ للصلاة، وتارة رجله دخل بها مسمار ولا يستطيع المشي عليها، لكنني ورغم استغرابي من التطورات المفاجئة في تصرفات مظلوم المناقضة لسياقه وتاريخه معنا منذ أن عرفناه، اعتبرت أن ما حدث، حادث سارّ، وانتهزتها فرصة مواتية ليحضر لي شيئاً من السوق فقلت:

ـ آه يا مظلوم. هات لنا جبنة بيضاء دلعة، ورغيفين فينو، وثلاثة زبادي، وعلبة حلاوة طحينية.

نادت عليّ ابنتي من الداخل، وقد سمعت حوارنا، فأضافت:

وبسطرمة يا ماما. نفسي آكل بسطرمة ببيض مقلي.

ـ وربع بسطرمة من بقالة البركة. إياك تجيب من أي مكان غيرها يا مظلوم، البسطرمة الموجودة في بقالة البركة ممتازة. قلت.

ـ حاضر.

ردّ، بلا مبالاة، ودون أن ينظر تجاهي وكأنه لا يسمعني، بينما كان يسترق النظر إلى ما وراء باب الشقة الموارب، كما اعتاد أن يفعل، فتركته وذهبت إلى الداخل لأحضر له الفلوس التي سوف يبتاع بها الطلبات، وعندما عدت ووضعتها في يده، شعرت بأنه يتململ قليلاً في وقفته ويبتلع ريقه في خجل، لم أفهم له مبرراً قبل أن يقول:

ـ يعني لا مؤاخذة، هو الأستاذ كريم من كمّ يوم بطّل ينزل يلعب بلعبه تحت عند العمارة!

كنت على وشك النطق لأقول له:

ـ أصلك يا مظلوم كاره لعب العيال في مدخل العمارة وعمّال تتشاكل معهم بمناسبة ومن غير مناسبة، فقلت أقصر الشر ومنعت الولد من النزول، لكن كريم كان قد سبقني في الكلام، إذ وجدته يقف إلى جانبي وقد جاء من الداخل بمجرد سماعه كلمات مظلوم وكأنه آلة تتحرك بالريموت كنترول وقال:

ـ آه. . والنبي عاوز أنزل ألعب قدّام العمارة.

فوجئت بمظلوم يؤيّده متحمساً.

ـ والنبي يا مـدام خلّه، ينزل يتـهـوّى ويلعب. . ومـاله لما يلعب ويفرفش!

تشككت في الأمر وأنـا أتأمل «مظلوم» بدهشة، فمـا هذا التغيـير الغريب في موقفه، قلت:

ـ لا الليل دخل، وأنت يا كـريم لعبك كلّه مشـاكل، أدخل تفرّج على التلفزيون. أقعد شُف أي فيلم كرتون.

ردّ مظلوم بصوت لا يخلو من ترجٍ:

ـ والنبي يا مدام خلّه ينزل، هو لعبه هادي، وبدون مشاكل والدنيا أمان. الليل في أوّله والشارع، الرجل فيه ماشية مازالت.

لعب الفأر في عبّي فعـلاً، فما هذا الإصرار من مظلوم على نزول كريم، فكري راح لبـعيـد، لأن «مظلوم» يعيش لوحـده بلا زوجة أو أسرة فهو كالمقطوع من شجرة، ومن يوم استقرارنا في هذا المكان، لم أر أي مخلوق يزوره في غرفته الصغيـرة القابعة أسفل بدروم العمارة، والآن حوادث الرجال والشبّـان مع الأطفال والأحداث زادت، ولا يمرّ يوم إلا وتطالعنا الصحف بـحوادث فظيعة من هذا النوع، فـالأخلاق في تدهور والضـمير يتـراجع بسبب ضـغوط الحيـاة وأزمات الشـباب وعدم مـقدرتهم على تلبـية حاجـاتهم الإنسانيـة المشروعـة، همست لنفسي: ربنا يستر على عيالي وعيال غيري، أما لمظلوم فقلت:

ـ لا كريم ممنوع ينزل. . الدنيا ليل.

صرخ كريم وبدأ تظاهرة احتـجاجيّة مدعّمـة بدموع وشعارات من النوع الذي يحبّذه دعاة حقوق الإنسان:

ـ هو أنا محـروم من كل شيء هنا. حرام عليكِ يا ماما تحـرميني

من اللعب. نفسي أنزل وأتهوى قدّام العمارة. أهئ أهئ. أهئ أهئ.

صرخت ابنتي من الداخل:

ـ بطّلوا وجع دماغ أرجوكم. عاوزة أركّز في المذاكرة.

زادت الضغوط ضد قراري، فتراجعت قائلة:

ـ طيّب. إنزل ربع ساعة، وتطلع بعدها فوراً.

ـ طيّب. أجاب كريم منتصراً.

وردّ مظلوم بحماس:

ـ وهات لعبتك الجديدة معك يا أستاذ كريم.

تحمّس كريم:

ـ طبعاً. طبعاً. هل معقول أنزل من غيرها يا مظلوم؟.

نزلا سوياً بعد أن دخل كريم غرفته ـ أو الأستاذ كريم كما يناديه مظلوم ـ وعاد بلعبته وبينما كنت أغلق الباب وراءهما، رحت أفكّر بمظلوم فهو إنسان غريب جداً، غامض ولا يمكن التكهّن بما يفكّر فيه أو بما يدور في رأسه أبداً. لقد ورثناه كبواب للعمارة عن صاحبها الذي جلبه في الأصل ليعمل بالياومة كفواعلي أجير، ثم استبقاه ليحرسها بعد ذلك، أذكر أنني رأيته لأول مرة، عندما جئنا إلى العمارة لنشتري الشقّة، بدا لي وقتها كائناً خرافياً بجلده المغبّر بتراب الإسمنت الرمادي، وجلبابه المهترئ الذي يرتديه على اللحم تقريباً اللهم إلا سروالاً داخلياً يستر عورته، رغم برودة الجو وعواصف أمشير، كان حافياً لا يكفّ عن الطلوع والنزول على السقالات حاملاً شكاير الرمل والإسمنت وكأنه «أسانسير بشري»، وقد قال صاحب العمارة لنا وقتها إنه جلب الرجل من بلدتهم في الصعيد، وأنه حكاية

في حدّ ذاته:

ـ تصوروا أنه اشتغل في مشروع السد العالي وشارك في حفر بحيرة ناصر رغم إنه حارب في حرب ١٩٧٣، وبعد ذلك سافر مرّة إلى ليبيا مشياً مع مجموعة عمال صعايدة لأنه كان بودّه يشتغل هناك ولكن عساكر حرس الحدود أمسكوه وضربوه علقة ساخنة ورجّعوه مصر مرة ثانية بعد سين وجيم، بسبب عدم وجود بطاقة شخصية معه ها، ها، ها.

وقال صاحب العمارة:

ـ إن «مظلوم» أصله من قرية في حضن الجبل، وناسها من شدّة فقرهم تعودوا على صيد القطط وأكلها، وأنه من المستحيل أن يجد الإنسان قطّة ماشية في شوارع هذه القرية. وعموماً هو كأنه يعيش في الجنّة هنا في مصر. جبتُه وقلت أكسب فيه الثواب، لأنه كان شغالاً عند الوالد في البلد بلقمته، يشيل ويحطّ في محل الأدوات الصحيّة الخاص بالوالد هناك. يعني هو وصل من قريته لبلدنا في الصعيد وهو محروم حتى من لقمة العيش ذاتها.

لم يمض وقت طويل إلا وسمعت صياح كريم من الشارع، فذهبت إلى الشرفة لأنظر منها وأستطلع الأمر، وإذا بكريم يصيح:

ـ خلاص. خلاص كفاية يا مظلوم. هات لعبتي، هل هي كانت لعبتك يعني؟. سبها خلاص!!

كان مظلوم ممسكاً بالريموت كونترول، ويحرّك السيّارة الجيب العسكرية الصغيرة التي أهداها لكريم أبوه بمناسبة بلوغه التاسعة من العمر. لقد بدا الرجل لي وأنا أطالعه من فوق وكأنه طفل مستحيل،

له جثة ضخمة وشوارب بيضاء، لا ينفكّ عن تحريك السيارة مقهقهاً بمرح مجنون، بينما طفلي مستمر في صراخه المغتاظ قائلاً:

ـ سيب يا مظلوم. خلاص. سيب الريموت كنترول وهات لعبتي.

ثم إنه هجم على السيارة المستجيبة لأوامر مظلوم، الذي لم يتوقف عن تحريكها حركات سريعة مجنونة لايقل جنونها عن جنون ضحكاته ذاته، وقام الولد بخطف الجيب من على الأرض بغتة لتستقر في حضنه وقد تشبث بها بكلتي يديه.

قال مظلوم بصوت مهزوم:

ـ يعني فيها شيء لو تركتها عندي يا كريم حبّة؟. طيّب إلعب أنت حبّة، ثم أنا ألعب حبّة. كل واحد منا تكون عنده حبة. أصلها حلوة قوي وأنا حبّيتها خالص.

رد كريم معانداً:

ـ لا.. أنت لعبت بها مدة طويلة. خلاص.

ـ طيب لأجل خاطري. هات أحركها من عند الباب لحد أول الجنينة.

كانت العربة مازالت في مكمنها الآمن بحضن كريم، فقال بتعال:

ـ لا. لعبتي.

ـ طيب هاتها يا كريم وأنا أمسك لك القطة السوداء من فوق السور وأخليك تشيلها وتطبطب عليها.

تريث كريم قليلاً، وبدا وكأن العرض مُغر له، ويستحق الدراسة والتفكير، قبل أن يقول:

ـ طيب من عند المدخل لحدّ أول الجنينة بس. وافق مظلوم على

شرط كريم بسرعة ورد:

ـ من عند المدخل لأول الجنينة بس يا عمّ كريم.

كان من عند المدخل لأول الجنينة، مسافة لا تزيد عن أمتار لا تتجاوز العشرة «بس»، لكن ما أن استقرّ الريموت كونترول في يد مظلوم مرّة أخرى حتى حرّك السيارة بسرعة بعيداً حتى وصلت إلى حد سور العمارة المجاورة لعمارتنا حيث كانت تقف فوقه القطة السوداء متأهبة ـ فيما يبدو ـ ليس للإمساك بها كما وعد مظلوم ولكن للهجوم على السيارة، باعتبارها هدفاً متحركاً لا يقاوم، صاح كريم غاضباً وجرى باتجاه السيارة الخارقة لشروط الاتفاق ليوقفها بينما ترجّاه مظلوم:

ـ اتركني يا كريم وحياة غلاوة والدك. أصلي عمري ما لعبت بلعبة في حياتي أبداً.

لم يتوقف كريم عن إصراره، وكنت أرغب في إعداد وجبة العشاء فقلت من فوق:

ـ اطلع يا كريم بسرعة، وأنت يا مظلوم رُح هات الطلبات وإياك تتعوق.

عبد الغفار.. مقاطعة

رائعـون. طيبـون. غـاضبـون، أولئك الآلاف الذين كـانوا هناك يعلنون رفضـهم لمهزلة بربرية لا سـابق لها يتـابعون فصـولها صبـاحاً ومساءً على شـاشات التلفزيون بالصوت والصورة، وكانوا يـتوشّحون بالحطّات ويرفعون أعـلام الأرض المقدسة ويهتفون ضـد سفالة طالت حتى كنيسـة عتيقة كانت أرضـها مهداً للسيـد المسيح منذ ما يزيد عن ألفي سنة.

كـان سؤال مـا العمل؟، يطل مـن أعين الجمـيع، البعض حـاول الإجابة فـاقترح برقـيات احتـجاج واعتـصامات وحـتى إضرابات عن الطعام لحـدّ الموت، إضافة إلى ضـرورة دعم ماديّ لهؤلاء الصـامدين المحاصرين على أرضهم، لكن الإجابة الأكثر عقلانية على السؤال من وجهة نظري كانت مسألة المقاطعة، المقاطعة الجذرية، الآن الآن وليس غداً، فـهذا هو الموقف الأكثـر عملية وقـابلية للاسـتمرار بعـيداً عن شلالات العواطف والانفعالات السريعـة التي سرعان ما تفور وقتاً ثم تأخذ في التلاشي شيئاً فشيـئاً حتى تغيب. كانت عبارة «الآن، الآن، وليس غداً»، هي العبارة الأكثـر رسوخاً برأسي من كل الكلمات التي قـيلت، والأفكار التي تناثرت خـلال ذلك الاجتـماع الهـائل، الذي

حضـره آلاف من الناس، في تلك القـاعة الفـسيـحة بمبنى نقـابة من النقـابات، والحقيـقة أنني، خـلال عودتي إلى الـبيت بعـد ذلك كان شاغلي هو استعراض البضائع والسلع التي سوف أدفع كل من أعرفهم حولي لعدم شرائها والتعامل معها، سواء من المأكولات والملبوسات أو من السلع الأخرى كمساحيق الـغسيل والمسلسلات والأفلام، وكل ما شابه ذلك وكنت أبتكر بمخيلتي أساليب إقناع أتصـوّر أنها فذّة وسريعة المفعول. وستجعل زوجي وأولادي وأولاد الجيـران وأهلهم وزملائي في العمل، والبقّال والجزّار والخضري والمكوجي يلبّون ندائي للمقاطعة فوراً، فـيمـتنعون عن شراء بـعض أنواع الحلوى أو يكفّوا عن غـسيل ملابسهم بهذا المسحوق أو ذاك.

كانت القائمة المطبوعة والمحـددة لأسماء عشرات من السلع والمواد المتوجب على الجمـيع مقاطعتها، والتي وزّعت خـلال هذا الاحتجاج الحاشـد، هي معينـي على مقاطعـة عاجلة فوريـة، لذلك وبمجرد أن اقـتربت من العـمارة التي أسكـن فيـها رأيت عـبد الغـفّار البـواب، والمكلّف بحراسة الأرض المجاورة لها أيضاً، جالساً على كرسيّه المعتاد أمامها، يتأمل مثلما أراه دومـاً أفق الإسمنت والطوب الممتدّ أمامه من عـمـارات تحت الإنشـاء وأبنية لا يـعلم إلا الله مـتى ينتـهي بناؤها، وبمجرد أن رآني هبّ عبد الغفار في حركة أوتـوماتيكية معتادة ليحمل عني مـا أحمله مـن أشيـاء، ولكن بما أني لم أكن أحـمل إلا أفكاراً برأسي عن المقاطعة، فقد اكتـفى بتحيتي وإبراز جانب من فكه العلوي كشفـت عنه ابتسامتـه الغامضة السـاحرة التي لم أفهمـها أبداً، رددت تحيته وقلت له بسرعة:

ـ عبد الغفار، خلاص عاوزين كلنا نعمل مقاطعة. .

لمّ عبد الغفار حاجبيه الكثيفين، وبربش بعينيه قليلاً، وبدا وكأنه يحاول فك شفرة ما قبل أن يتساءل بدهشة:

ـ مقاطعة!

ـ آه مقاطعة البضاعة والحاجات الإسرائيلي والأمريكاني. قلت.

صمت قليلاً، قبل أن يردّ بهدوء:

ـ آه!

بدت «آه» غامضة على نحو ما بالنسبة لي، فأنا لا أعرف هل فهم كلامي فعلاً، أم أن الأمر التبس عليه، أو أنه يجاريني في الكلام فقط، فعبد الغفّار متحفظ عادة ولا يفصح عما بداخله وهو يصرّ على فهمه للحياة كفلاّح قدِمَ المدينة للعمل هرباً من بؤس الحياة الريفية ويخشى التورط مع أمثالي من سكان المدن، الذين يبدو كأنه لا يفهمهم أبداً، لذلك حاولت إيضاح الأمر له على نحو أكثر تفصيلاً، فقلت:

ـ يعني عاوزين نبطل شراء البضاعة الإسرائيلي والأمريكاني.

سقط حائط غربة بيننا إذ قال على الفور:

ـ قطيعة تقطعهم يا أستاذة.

ـ لأنّ، أنت شايف بعينيك، وكلّ يوم، في التلفزيون أفعالهم ضد الفلسطينيين وجرائمهم ضد الأطفال و. .

قاطعني وكأني نكأت لديه جرحاً قديماً فقال:

ـ أفعال سوداء ومنيّلة يا أستاذة. تعرفي لما أتفرّج على التلفزيون وقلبي يتحسر، والعيال الصغار أمام عيني مضروبة بالرصاص

ومقتولة، يبقى نفسي أشيل طوبة وأخبط بها التليفزيون وعساكر إسرائيل، لكني أمسك روحي، وأقول: يعني التلفزيون ينكسر يا عبد الغفار؟! الغرض أقول لك إني أصير كالمجنون من الغيظ والله يا أستاذة.

كان ذلك كافياً لأن أقول بدوري:

ـ أفضل شيء ومن غير كسر التلفزيون هو أنك تقاطع حاجاتهم وتمتنع عن شراء أي بضاعة منهم، لأن الفلوس المدفوعة فيها معناها أسلحة ورصاص يستخدم في قتل الناس والعيال. يعني المشاريب الصاقعة على سبيل المثل نمتنع عنها كلنا، وبناقص.

ـ طيب تعرفي يا أستاذة أنه لما الحرّ يشتد ويبقى الإنسان ريقه ناشف، عمري ما أبل ريقي بغير العرقسوس أو الكركديه. أصل قزايز الحاجة الصاقعة كلها مرض.

ـ والشاي يا عبد الغفّار. منه أنواع مقاطعة.

ـ طيب، صلّي على النبي، من يوم ما وعيت على الدنيا وأنا لم أشرب غير شاي الحصان؛ أصله رخيص وعلى قدّ حالنا يعني.

حرت وأنا أبحث عن شيء يقاطعه عبد الغفار. أضطررت لإخراج القائمة المطبوعة التي أحملها من حقيبتي. فتحتها بسرعة ورحت استعرض ما ورد بها: أصناف من الحلوى واللبان، أسماء أجنبية لأنواع مختلفة من الشيكولاتة، مأكولات معلّبة، لم أجرؤ على مطالبة عبد الغفار بمقاطعتها لأنه، ولابد، لم يسمع عنها ولن يسمع عنها طيلة حياته، كنت على وشك مطالبته بالامتناع عن شراء أنواع من الأقمشة والملابس الأمريكية قرأتها وقد دوّنت في القائمة، لكني

تراجعت فوراً، إذ كانت الجلابيـة البوبلين المصنوعة من القطن المصري والطاقـيّة الشـبيكة على رأسـه، والتي لم أره بغيـرهما أبداً كـفيلـتان بإسكاتي، لكن كانت أمامي مساحيق الغسيل فقلت:

ـ مساحيق الصـابون فيها مقاطعـة، وأصناف من صابون التواليت والحوض ممنوعة لأنها إسرائيلي وأمريكاني:

جاء ردّه كما لوكان يشاكسني ويصرّ على دحض أفكاري إذ قال:

ـ والله يا مدام. . أم مـحمّد جـماعتنا طول عـمرها تحمّم العـيال بصابـون نابلسي لأنه بركة وبزيت الزيتـون، ثم إن الأمريكانـي غالي والمسحـوق الرخيص هو المـصري، ولحدّ الآن مـا توصلناش لغـسالة بالكهرباء لأن الحكومة ركّبت العمدان، والتيار دخوله باقي عليه وقت والحكومة يومها بسنة.

تبقّى الأكل، المواد الغذائـية الأساسية، وهذه لن يفلت منهـا عبد الغفار، سأحاصره حتى يقتنع ويقاطع، قلت له بحزم:

ـ وكافة المأكولات لازم نقاطعها كلنا يا عبد الغفار.

ـ طيّب يا أستاذة صلّي على النبي، أنا، الفراخ الأمريكاني المحنّطة الموجودة في المحلاّت والمحطوطة في الثلاّجات، مستحيل تهوّب ناحية فمـي، يعني لو أني ما أشـوف الفرخـة تلقط الحب من الأرض بذات نفسها، وتنقّي بروحها أكلتهـا، عمري ما أحطّ لحمها في جوفي أبداً، حتى ولو دفعوا لي ألف جنيه. في الأكل لازم أن يكون الإنسان أنفاً. آه، الأنفة في الأكل مطلوبة.

لم يكن عبد الغفـار مضطراً لكل هذه الخطبة المطولة، ولم أجد أنا ما أضيفه وأنا أتأمل ما زرعه عبد الغفار من بصل وجرجير في حوض

الزهور الموجود.

وبعدما رحت أتخيّل القائمة الغذائيّة اليوميّة له، والتي من المستحيل أن تتضمّن أياً من السلع التي تضمها قائمة المقاطعة التي أحملها معي.

تأمّلت عبد الغفّار، كانت ملامحه سمحة، هادئة، مطمئنة، تطلّ منها ثقة وسكينة عميقة لم تتغير أبداً، فكّرت في أن عبد الغفار لم يحضر ليدين ويندّد ضمن الحشد الهائل في النقابة، ولم يطالب باعتصام أو بإضراب عن الطعام ولم يدعُ إلى مقاطعة، وفكّرت أن أدعوه إلى اجتماع مقبل في المكان ذاته ليتحدث أمام هذا الحشد عن طريقته في المقاطعة وليشاهد الجميع كل ذلك اليقين المطلّ من عينيه، ولكنني كنت أعرف إجابته مقدماً والتي ستكون: «وهل من المعقول أن أترك العمارة والأرض يا أستاذة». لذلك لم أسأله وآثرت تركه. وبينما كنت أضغط زر المصعد الذي سيقلني إلى شقتي في الطابق السابع من العمارة، رحت أفكّر في عنوان لقصة عبد الغفار وهل سيكون:

عبد الغفار يقاطع أمريكا؟

أم عبد الغفار هو الحل..

عبق حصار لا يُنسى

كانت الفتاة ذات الرائحة الكريهة قد أتت لتوها، ، عندما شعرنا بالانفجار وهو يهزّ البناية ويرجفها كشجرة تحت ريح. قدّمت إلينا خطاباً تحمله من رفيقها، صديق زوجي، وقالت إنها قادمة من الجبل رأساً. فهمتُ أن لديهم نقصاً شديداً في المياه هناك، ليس بسبب رائحتها غير المحتملة فحسب، ولكن، لأن شعرها المشعّث ووجهها المتسخ وملابسها، جَعلوها تبدو أمامنا كأنها طفلة مشرّدة في الطرقات، فلمّا رحب زوجي بها معلناً ـ بَعد أن قرأ الخطاب ـ أنه لا مانع من أن تبيت ليلتها في بيروت عندنا، أقسمتُ لنفسي ألا تعبر هذه الضامرة القصيرة مدخل البيت إلا إلى الحمّام أولاً، لتستحم وتغيّر كل ملابسها، وتمّ لي بسرعة ما أردت لا بسبب قسمي، ولكن لأنها هرعت معنا سريعاً إلى منطقة الانفجار بالكولا، إذ رنّ الهاتف، ليخبرنا مَنْ طلبنا أن «جميل» قد أصيب وتمّ نقله إلى المستشفى.

كان صديقنا «جميل» أو القط البري الأليف، كما نسمّيه، قد أصابته شظية من قذيفة إسرائيلية استقرّت بين ضلوعه، دون أن تصيب ـ لحسن الحظ ـ عموده الفقري، انتظرنا حتى خرج من غرفة العمليات، وبقينا إلى جانبه وقتاً ونحن نتعجب من انقلابات القدر،

وقد بدا غاية في الضعف والوهن، وهو الذي كان بالأمس معنا، يصعد إلى طابق البناية التاسع ؛ حيث نسكن، وقد حمل عنا صندوقين من زجاجات المياه، فلما وصل ووصلنا إلى البيت، كنا نلهث نستجدي الأنفاس، ونتصبب عرقا، دون أن نحمل غير أجسادنا، وهو لا يكفّ عن الثرثرة والضحك، كأنه يعبر خطوات على طريق! وكنا بسبب قوة احتماله الخارقة وبنيانه الجسدي المتين ورأسه الكبير المسربل بشعر ناعم غزير كالذي لشاربه الطويل الملتحم بذقنه، نسمّيه القطّ البري الأليف، فلقد كان عقله دوماً خاوياً من أية أفكار تذكر عن الدنيا، سوى فكرة واحدة هي مقتنه اللامحدود للإسرائيليين الذين قتلوا أخاه الأصغر مع كلبه، في واحدة من غاراتهم على قريته الجنوبية، دمّرت منزلهما، حيث كان الأخ نائماً بداخله.

لم تبت الفتاة ذات الرائحة الكريهة عندنا ليلتها، فقد أصرّت أن تسهر إلى جانب «جميل» لترعاه، وقالت إنها ربما تبقى بالمستشفى وقتاً، حتى يزول عنه الخطر، ولسوف تستأذن جماعتها من المقاتلين في الجبل، لأجل ذلك، ولا داعي للقلق، وكنا قد تحاورنا أمامها في أننا سوف نتناوب زيارته، زوجي وأنا، وفقاً لظروف عمل كل منا وارتباطاته. شكرناها، وقلت إنني سوف أمدّها ببعض من الملابس سريعاً، كي تغتسل في المستشفى وتسترخي قليلاً، قلت لها ذلك وأنا أفكر في أنها لابدّ أن تكون أكثر نحافة مما تبدو عليه، إذ أنها ترتدي قدراً من الملابس لا بأس به، ربما بسبب برودة الجو في الجبل، وكنت أفكر، أيضاً، كيف تكون العناية الإلهية التي ساقها الله إلى «جميل»

بكل هذه النحافة والضمور، وملامح الوجه الباهتة التي لا يوجد ما يستوقف المرء فيها، لو اغتسلت بألف صابونة، لكن على أية حال، كان بها شيء مريح مطمئن لا يمكن الإمساك به، كأنه يقين غامض في داخلها لا يمكن الكشف عنه، جعلنا نمضي ونترك «جميل» وديعة بين يديها، ونحن نفكر في القدر وتصاريف الزمان!.

مرت شهور بعد ذلك، كانت خلالها «العناية ذات الرائحة» بجوار القطّ البري ذي الرأس الكبير والشوارب المسربلة والعينين الخضروايْن. كنا نذهب إلى المستشفى لنعوده، لنكتشف شيئاً فشيئاً أن القطّ البري صار قط العناية الأليف، وأنه لا يستطيع الاستغناء عنها أبداً، بل يتبعها كظلّها أينما سارت داخل المستشفى، بعد أن وقف على قدميه.

الاكتشاف الأهم كان أن القط الأليف صارت لديه أفكار أبعد من كراهية الإسرائيليين! إنه يناقش أموراً متباينة، ويدلي بآراء من نوع: هل يمكن محاربة إسرائيل بأنظمة عربية لا تملك زمام أمرها؟ بدا القطّ مبهراً لنا، وقد أيقنا أن العناية الإلهية تدخلت بالفعل، ليس للتأثير الإيجابي على جسد «جميل» فحسب، ولكن على رأسه، أيضاً.

بقينا فترة لا نرى الفتاة ذات الرائحة، حيث لم تعد تتردد على «جميل» في المستشفى، وقد تماثل للشفاء حتى كان وقت الحصار الإسرائيلي، وكنا قد صرنا في واحد من المراكز العسكرية المنتشرة على خريطة بيروت للدفاع عنها، وقد تحولت المدينة إلى بؤرة حرب حقيقية، وقف العالم يتفرّج عليها، وأنياب الغول الإسرائيلي تنغرس في جسدها يومياً، على هيئة قذائف وقنابل، بدا أنها لا تستهدف التدمير والتخريب، بقدر ما تستهدف خراب الروح وإذلالها، حتى

بلغ سيل القذائف قذيفة لكل ثلاثة مواطنين يعيشون بالمدينة، وفي إحدى الأمسيات، وبينما كانت تتصاعد بالمقابل عمليات تدريبنا على المقاومة، جاؤونا بمن يدربنا على استخدام قذائف الـ RBJ ولم يكن هذا المدرب غير الفتاة ذات الرائحة الكريهة!

كان المركز يضم شباناً وشابات منحتهم بيروت هويتها، . وهذه كانت معجزة بيروت الحقيقية في ذلك الزمان، أن تمنح ملامحها لكل الذين عاشوا فيها، تمنحهم بعضاً من روحها، فتصيبهم بذلك الجموح والجنون ولذة الحرية الجميلة، حرّية أن تختار سلطتك وحياتك وتفاصيلك الإنسانية كلها.

بدَت الفتاة غير مقنعة لنا في البداية، إنها كالريشة يمكن أن تطير مع أول هبة ريح، مظهرها لا ينمُ عن خبرة عسكرية محتملة، خصوصاً وهي تشرح وتسهب في كيفية الرمي، وأساليب الهجوم والدفاع، وكان جُل الذين ينتمون إلى المركز من أولئك الذين طالما نظروا وتناظروا بالسياسة وأحوالها، وقرأوا وكتبوا عنها حالمين بتغيير العالم، أو بإعادة صياغته على شاكلة بيروت الحصار! كان بعضهم قد بدأ يتثاءب والبعض الآخر قد ملّ الاستماع إلى تلك الطفلة الكبيرة الواقفة أمامهم، كأنها لا تتحدث عن قذيفة، بل عن لعبة من ألعابها الصغيرة. بيد أننا تنبهنا جميعاً إلى إجابتها عن سؤال وجهه إليها أحدهم بهدوء: «ننسحب؟! لماذا ننسحب عندما يهاجمنا الإسرائيليون؟! لماذا نفكر بالانسحاب يا أخي؟؟».

بعد أيام قليلة، كان السائل قد انسحب بالفعل، ليس من أمام الإسرائيليين، بل من بيروت كلها، إلى أفريقيا، ليلحق بأسرته

المهاجـرة هناك، أما هي فقد خـرجت ذات مساء إلى مـوقع عسكري على البـحر تحـمل قـذائفهـا، برفقـة عـدد من الذين لم يفكروا أبداً بالانســحـاب، ولم تعـد ولم يعودوا أبـداً من هناك، وكان آخـر مـا تذكّرناه عنها، أن رائحتها ذلك المساء كانت طيّبة، بل زكيّة جداً!!.

مشاهد من أمسيات سينمائية

مشهد: ١

غروب داخلي

خالتي جالسة على سجادة الصلاة. أمي تجلس بالقرب منها على الكنبة، تقول بعصبيةٍ لأخي الصغير الذي مدّ رجله على حجرها لتربط له «أبزيم» الجزمةَ.

- إعدل رجلك عدل، واثبت، وبطّل حركة. خليني أشوف الخرم.

يرد الصغير ممتثلاً:

- طيّب.. طيّب.

يستمر في تحريك جسمه جزلاً، تختم خالتي صلاتها وتشرع في أخرى قائلة:

- نويت أصلى ركعتي سنّة.

أصرخ مع أختى بغيظ وأقول:

- لا.. لا يا خالتي، خلي السنّة لما نرجع، عاوزين نتفرج على المناظر من الأول.

ترد الخالة مماطلة إيانا:

- يعني كل شيء جهز خلاص، يعني الدنيا طارت، كلها دقيقة

أخطف فيها السنّة وخلاص . . الله؟

لجادل بدورنا فتقول أختى:

ـ كل شيء جاهز، حتى «طنط» تريز جاهزة ومنتظرة.

تبوء محاولتنا بالفشل، وتواصل خالتي صلاتها كاملة.

لم تكن «طنط» تريز وعيالها، هم الذين يذهبون معنا إلى السينما فقط، لكن كانت جارات أخريات يذهبن معنا كذلك، وأحيانا كنا نصطحب ابنة المكوجي الكائن محله أسفل العمارة، وكانت أمي تدعوها إلى السينما على سبيل المجاملة، لأن البنت وحيدة وعيّلة عاوزة تفرح، خصوصاً أنها يتيمة الأم ولا تجد من تذهب معه إلى السينما، أما عندما يكون بدار السينما فيلم متميز، فإن الوفد كان يضم جيرانا آخرين أو أصدقاء أمّى من الحي نفسه، فنشكل حشداً حقيقياً من النساء والعيال، وقد تجهّزنا بالساندوتشات وزجاجات الليمونادة، واللب والفول السوداني والحمّص، وكانت «طنط» تريز متخصصة في إحضار قلّة المياه التي تبخرّها عادة ببخور تحضره خصيصاً من الكنيسة، وتضعها في حقيبة جلدية صغيرة خاطتها «طنط» تريز بنفسها لمثل هذه المناسبات، وكانت هذه القلّة بمثابة إشكالية دائمة بيننا قبل الذهب إلى السينما، فنحن البنات كنّا نرفض حملها حتى لا تقل قيمتنا وتفسد أناقتنا، أما الصبيان فيرفضون شيلها من منطلق أنها تعيق حركتهم فلا يستطيعون الجري على الطريق إلى السينما، والحقيقة أن القلّة كانت تقع عادة في قرابيز «طنط» تريز نفسها بعد أن يُسقّط في يدها، فتنعتنا بمنظومة شتائمية تنوّع على لحنها الأساسي، بمشاركة أمّي، بكلمات تدور حول قلة

الحيـاء والدم، وتتضمن تهديداً لنا بعـدم الشرب خلال الاستـراحة، حـتـى لو عطشنا وجـفـّ ريقنا، وتدلت ألسـنتنا ككلاب الشـوارع الجربة.

لكن ذلك لا يمنع مفأجات «طنط» تريز المتخـصصة، فمجرد إظلام القاعة، وبداية تشغيل آلة العرض، تبدأ «طنط» تريز في توزيع الترمس المملح أو الحلبة المنبّتة علينا، أما الساندوتشات المقررة من قبل أمّي في مثل هذه الأمسـيات، فكانت تتكون من الجبن الإستامبـولي مع الخيار الشنبر «نصف رغيف»، وحلاوة طحينية «نصف رغيف آخر»، الحلاوة كانت تُـستبـدل أحيـاناً بمربّى الجزر أو البلح، أو العـجوة المقلـيّة في السمن.

كان الذهاب إلى السـينما آنذاك من أمتع الطقوس في حـياتنا، أما المتعة، فكانت تبدأ من اللحظة التي نرتدي فيها ثيابنا ونتهيّأ للخروج، فأجمل مالدينا من ثياب كان للسينما، والحرص على أفضل مظهر كان للسينمـا، وكنا نسير في الطريق عـادة بهدوء وتهذيب على الأرصـفة ـ كانت هناك أرصفـة آنذاك ـ، أما شراء التذاكر، فكانت مهـمة واحد من الصـبيان، وكنا نحـرص على الانتظار حـتى يدخل الجمـيع، فلا يزاحمنا أحد.

وعندما نأخـذ مقـاعدنا، كانت أمـي وجارتنا العزيزة تجلـسان عند بداية ونهاية الـكراسي، بينما نجلس نحن جمـيعـاً في الوسط حتى لا يضايقنا أي من الغرباء إذا ما جلس بجانبنا.

وكنا نحرص على مشاهدة «الإشـارات»، حتى نقرر الأفلام التي سنراها في المرات المقبلة، وكانت هذه المشـاهد المقتطعة من أفلام لم

تعـرض بعـد تجعلنا نـعيش في نوع مـن أحلام اليـقظة، حـتى نرى الأفـلام بكاملهـا، وكـان أبطال هذه الأفـلام يعيـشـون مـعنا طوال الوقت، فشادية وعماد حمدي وفـاتن حمامة وحسين رياض وغيرهم من فناني هذا الجيل العظيم، كانوا يقاسمـوننا الحياة ونتمثلهم دائماً، ولأن خـالتي كانت تـهوى الخـيـاطة والتطريز، فقـد كـانت تراقب وتمحّص ملابس البطلات وسرعان ما تفاجئنا، بأنها حاكت ثوباً، من الموجاشيل الوردي، كالذي كانت ترتديه فـاتن حمامة في فيلم كذا، أو أنها رفعت شعـرها وثبتت فيه وردة ساتان صنعتها بنفـسها كالتي ظهرت بها مديحة يسـري وهي تراقص شكري سرحان في آخر فيلم رأيناه.

مشهد: ٢

ليل داخلي

صالة السينمـا ممتلئة عن آخرها، فريد الأطراش يعانق مـريم فخر الدين بينمـا تنزل على الشـاشـة كلمة الـنهاية، تضـاء الصـالة إيذاناً باستراحة قصيرة، يعقبها عرض الفليمين التاليين بينما يصفق الجمهور، البعض يصـفر، صفّنا يصـفق وهو واجم، الدموع مـازالت في أعيننا بعد أن ذرفنا منها كمـيات تفوق تصور أرسطو شخصـياً، محدثة كل التطهيـر أو «الكاثارسيس»، الذي طالما تحـدّث عنه. بل وزيادة أيضاً، يطلب أخي الصـغير كـازوزة على خلفيّـة من موسـيقى «زينة» لعـبد الوهاب، تنهره أمي وتقول له: اشرب ليمونادة، رادار بائع الكازوزة،

يلتقط سريعاً إشارات أخي، فيسارع بالوقوف فوق رأس أمي ويفتح زجاجة بسرعة البرق ويقدمها للصغير، تمتثل أمي للأمر الواقع وتفتح حقيبة يدها لتخرج نقوداً للبائع وهي تقول: مصيبة، مصيبة وحلّت عليّ والله العظيم.

في الاستراحة، نكتشف معارفنا في الحيّ، ننهض لنحيي أصدقاءنا، النساء يقبّلن بعضهن البعض، بينما يرمقن الملابس، يبدين الملاحظات على الفيلم، يتناقشن سريعاً في أهم الأحداث التي جرت أو تجري في الحي: تجديد مواسير المجاري، رصف شارع جديد، بناء مدرسة. . الخ.

كنت في هذه اللحظات، مثلماً لحظات أخرى عديدة في حياتنا، أشعر أننا مجتمع، توّحدنا أشياء، ونتوقف جميعاً عند أشياء، جماعة بينها رابط. علاقاتنا الإنسانية بسيطة سلسة، بها من الحب والمودة أكثر مما بها من البغض والأحقاد، كنا آنذاك جميعاً، متساوين، متقاربين، في المدرسة وعلى المقاعد المدرسية ذاتها تجلس إلى جوارنا بنات وزراء ورجال مهمين في البلد. «كنت شخصياً في سراي القبة الإعدادية مع هدى ومنى بنات عبد الناصر»، كان هناك نسيج واحد قوي ومتين، نسيج من الآمال والأحلام والقيم الإنسانية التي تجعل منا مجتمعاً واحداً، وكانت السينما مثلها مثل العديد من التفاصيل الأخرى في حياتنا، تسهم في تشكيل وجداننا، وتعمل على أن تصهرنا في بوتقة واحدة.

ورغم كل ما قيل عن السينما المصرية التجارية خلال تلك الفترة، ورغم محاولات الإدانة المستمرة لها، فإن هذه السينما استطاعت أن

تعبّر عنّا وترسم ملامح الشخصية المصرية كما كانت في الواقع، ولم تكن شخصياتها النمطية التي جرى تجسيدها عبر أداء ممثلين عظام كعلي الكسار، أو إسماعيل ياسين، أو زينات صدقي، أو عبد الوارث عسر، أو حسين رياض، أو محمود المليجي ببعيدة عن نماذج حية نعايشها وتتحرك بيننا في الحياة، إن هذه الأفلام التي طالما نعتناها نحن المثقفون بالسطحية والتجارية، وغياب العمق، هي التي وثّقت - في الحقيقة - ملامحنا الإنسانية، وعلاقتنا الاجتماعية، مثلما وثّقت شوارع وحواري مدننا وقرانا خضرة الريف المنسحبة، وعمارة المدنية الراقية، جمال نسائنا ووسامة رجالنا في أواسط هذا القرن. إن هذه الأفلام التي طالما نعتناها بالسذاجة والسخف، هي دليل شاهد على جانب من حياتنا، حياة جميلة تسرّبت من أيدينا، ومازالت تتسرّب حتى الآن، لتغوص في الفج والقبيح الزاحف عليها بعنف من هنا وهناك.

وكنا نحن البنات آنذاك نحاول أن نكون كفاتن حمامة، وشادية، ونادية لطفي، وماجدة. نحاول أن نكون رقيقات، خفيضات الصوت، نسلك برقة وشاعرية، ونحلم أن يقع في حبنا ذات يوم واحد كشكري سرحان، أو عمر الشريف، أو أحمد مظهر، أو كمال الشناوي. كانت السينما بالنسبة لنا هي الرقيّ والظرف واللطافة، حتى أشرار السينما وقتها كمحمود المليجي، وفريد شوقي مثلاً، كانوا رائعين في شرّهم، كان شراً عظيماً فارقاً في علاماته عن الخير الذي يبقى بعده، ويتراكم في أعماقنا دائماً.

في عصر سينما، طالما ساهمت في صنعنا، كانت بطلات الأفلام،

رشيقات، أنيقات، بسيطات المظهر والسلوك، يعبرن بحقّ عن روح البنت المصرية آنذاك، لم يكن عريهن ابتذالاً، فالأذرع والسيقان العارية، لم يكن معناها لحماً أبيض يستهدف الغرائز والشهوات، لم يكن تعريف الجميلة في السينما وقتها: كتلة من اللحم الأبيض البارز من هنا وهناك، يعلوها شعر أصفر مصبوغ، ومكياج صارخ. حتى ممثلات الإغراء، كنّ فاتنات بلا تبذّل، كانت هند رستم فاتنة وراقية في أن معاً، كانت تؤكّد بأدائها المحسوب، أن للجسد حضوره التمثيلي، وليس ذلك الحضور، المسفّ الذي يجعل السينما، مجرّد علبة ليل رخيصة في متناول الفقراء.

مشهد: ٣

غروب خارجي

أمي، خالتي، نحن، «بنات وصبيان»، كلبة أرمنتية سوداء في الخلف السيدة خديجة صديقة أمّي.

السيدة خديجة.

ـ على مهلكم يا أولاد.. لأن الكعب وجّعني جداً. ترد ابنتها ـ وهي تكبرنا قليلاً ـ قائلة:

ـ قلت لك في البيت، البسي جزمة رحّافي، يعني هل لازم لبس جزمة بكعب رفيع وعالي؟

ترد أمي مستنكرة.

ـ يوه؟ يعني عاوزة ماما تروح السينما بكعب رحّافي على تايور؟

تؤمن السيدة خديجة على كلام أمي.

ـ شوفي والنبي الجليطة ياست صفيّة.

كانت السيدة خديجة بلغة شجرة النسب الشريف المعلقة في غرفة استقبال بيتها، أو «طنط» خديجة بلغتنا، هي نجمة أمسياتنا عندما نذهب إلى سينما روكسي، فقد كانت امرأة قوية الشخصية لها حضور، متكلمة، إضافة إلى تجربتها المتميّزة الخاصّة، فقد كانت من طلائع المدرّسات المصريات اللواتي ذهبن إلى ليبيا في ذلك الزمن، واكتشفن هناك الذهب الأسود، أما تميز هذه «الطنط» الحقيقي خلال أوقات السينما المندثرة هذه، فيأتي من ارتدائها عادة لعقود من الكريستال، أهداها لها أخوها الضابط بالجيش، وهذه العقود مثلت أحدث صيحة في عالم الإكسسوار عند نهاية الخمسينيات من هذا القرن، وقد انتشرت انتشار النار في الهشيم داخل البلاد، كواحدة من أهم الانجازات الملموسة المترتبة على صفقة الأسلحة التشيكية لمصر سنة١٩٥٦ .

عادة كنا نعّرج من بيتنا إلى بيت طنط «خديجة» في شارع العزيز بالله بالزيتون، ونصطحبها مع أولادها حتى سينما روكسي الصيفية، فنستمتع بمرأى شوارع مُشجرة خالية نظيفة، ونسير حتى نعبر شارع جسر السويس، ثم نسير بجانب ساحة نادي سباق الخيل، فنشاهد من خلال سوره الحديدي المكشوف سندساً من الحشائش الخضراء المرعرعة والمقصوصة بنظام على مدى البصر، وعندما نصل السينما، كنا نشتري قبل الدخول الكاساتا بالمارون جلاسيه، «ثلاثة قروش للقطعة الواحدة»، فنلتهمها بتلذذ قبل دخول قاعة العرض، وتظل «حنونة»

(ركسي سابقاً)، كلبة «طنط» خديجة معنا، حتى نكون على وشك الدخول إلى مكان العرض. فتأمرها صاحبتها بأن تعود مرة أخرى إلى البيت وهي تقول لها «خلاص. روحي يا حنونة، متشكرين». ولكن حنونة كانت تفاجئنا أحياناً، فتبقى في انتظارنا حتى منتصف الليل، وعندما كنا نكتشف ذلك، كانت تأخذنا المفاجاة، فنهرع إليها منقضّين عليها لنقبّلها ونقول: «ياه.. تنّك واقفة؟». والحقيقة أن حنونة كان لها في قلوبنا معزّة خاصة، فقد أظهرت هذه السوداء الصعيدية شهامة ونبلاً قلما يوجدان بين بنى الإنسان. فلقد كانت لطنط خديجة قطة مشمشية دلوعة انتقلت إلى الدار الآخرة إثر حادث أليم، بعد أن وقع عليها باب قديم «فطّسها» في التوّ، وكانت المسكينة قبل ذلك بأسبوع قد ولدت ثلاث قطط «ذكران وأنثى»، تيتموا بعد وفاتها، فتكفّلت «ركسي» وبالجهود الذاتية بإرضاعها جميعاً مع أربعة من صغارها، كانت قد وضعتهم قبل ذلك بقليل، فكانت هذه اللفتة الأمومية الحانية من «ركسي» من أهم حوادث سنة ١٩٥٩ المشهورة في تاريخنا المجتمعي الحديث، وبعدها تغير اسم «ركسي» إلى «حنونة»، وظل ملازما لها حتى قُتلت بخرطوش غادر أثناء غارة من الغارات التي تشن على الكلاب لإعادة الانضباط للشارع المصري!

في سينما روكسي شاهدت في طفولتي أجمل أفلام الكارتون، توم وجيري أبيض وأسود، توم وجيري ألوان، ميكي ماوس. أمّا أعظم الأفلام في صباي فكانت «علاء الدين والمصباح السحري»، «جَليفر»، رحلة إلى منتصف الأرض »، وكان «ستيف ريفز» في أدوار «هرقل» و«طرزان» له مذاقه الخاص على شاشة سينما روكسي «ربما لأنها كانت

سكوب ». وكان يبدو لي ضخماً جداً، ووسيماً جداً.

وعندما بدأت مداركي تتفتح، كانت سينما روكسي الصيفية، قد تحولت إلى سينما شتوية، وهكذا تبددت متعة سينما الهواء الطلق التي طالما استمتعنا بها فيها، متعة الجلوس على كرسي من خشب البامبو وقراءة الحوار المترجم على خلفية من أصوات الميدان الواقعة عنده السينما وحركة عبور المترو، وفي الدار التي فقدت انفتاحها السماوي، تعرّفت على سينما مصرية من نوع جديد، ففيها شاهدت فيلم «فجر جديد» ليوسف شاهين، وكان هذا الفيلم بداية تلمس لملامح سينما عربية مختلفة، تدفع المشاهد للتأمل والبحث والتفكير.

وكان «الخريج» لداستن هوفمان، هو بداية تعرفي على سينما عالمية من نوع آخر، وكان «الخريج»، يختلف عن أفلام الغرب وأفلام الإثارة وكل تلك التوليفة الأمريكية المبهرة التي تعوّدنا عليه، وكان «هوفمان» ممثلاً مختلفاً عن «ستيف ريفز» بالنسبة لي، وهكذا بدأت أفتش عن سينما أخرى، سينما تقدم ما هو أبعد من المتعة والتسلية والبهجة المنظورة.

لقد دخلت «الخريج» مع ابنة خالتي وخطيبها الضابط الشاب، والذي دعانا مع خالتي وأمّه وأخته لحضور هذا الفيلم، ويبدو أنه كان يحمل دعوة مجانية للعرض وقتها، فقد جلسنا «اللوج»، كما أنني اكتشفت بعد زواجه من قريبتي، أنه غير مهتم بالسينما على الإطلاق.

مشهد أخير:

ليل داخلي

زوجي، أنا، الأطفال.

زوجي: قومي نروح السينما.

أتابع قراءة صفحة الحوادث: قتل محارم، سرقة، اختلاس، اغتصاب، أقول له وأنا أزفر:

ـ بلا سينما بلا نيلة.

يحاول اقناعي.

ـ في سينما التحرير فيلم معقول، أخوك قال لي الصبح على التليفون.

أفكر في المشوار، زحام الطريق، ثمن البطاقات المرتفع، استدعي في مخيلتي جيراننا في العمارة، والذين لا نتبادل معهم أكثر من صباح الخير أحياناً، أنظر إلى أطفالي الصغار، بينما أتذكر جارتنا أبلة حسنية، التي كانت تترك رضيعها عادة عند جارتنا الأخرى «نينة» حكمت، لتذهب معنا إلى السينما، أنظر إلى الأطفال وأسائل زوجي:

ـ والعيال؟

يرد بضيق:

ـ آه.. نتركهم عند أختك ونرجع لهم بعد السينما.

يعرف أنه اقتراح مرفوض، فهذا معناه التوجه أولاً إلى شبرا، ثم الذهاب بعد ذلك إلى الدقي، وإعداد الأولاد للخروج يحتاج جهداً ووقتاً، لا يستحقه الذهاب إلى السينما.

تتوالى السنون، لا نذهب إلى السينما، تخرج السينما من حياتنا شيئاً فشيئاً، «إشارات» الأفلام العربية في التليفزيون مقرفة، تزداد عزلتنا.. نتساءل طوال الوقت: هل نحن مجتمع حقاً؟

فصل الجحيم

هو الوحيد القهّار، القادر على إخراسنا وتلجيمنا رعباً كجلاميد النبي لوط المسخوطة. يدخل الفصل علينا فيطلق صوته وحشاً منقضاً على فريسة: قيام. جلوس. فننتفض بآلية ممتثلة، ضابطين حركة أجسادنا على إيقاع كلماته، دون أن يُسمع لأي منا عقيب ذلك نبسة أو نأمة أو هسّة هسيس، فلما يطمئن إلى حلول كامل سطوته وبالغ جبروته لهنيهات يندفع شارحاً درسه بمفتتح وجيز عن التقوى والمتقين، والجنة والموعودين، حتى تسكن نفوسنا وتطمئن أرواحنا فنسبح في الكوثر وتمتلئ مخيلتنا بلذائذ القطوف الدانية، لكنه سرعان ما يدفعنا بعيداً عن ذلك فيأخذنا من عالي الفراديس إلى وهدات سقر، والموبقات، والسعير، والجحيم، والحميم، والحريق، وجهنم بلظاها الملظي تارة، وحمَئها المسنون تارة أخرى، فندرك أنه خسف بخيالنا خسفاً وقد عرّج على الجنان عروجاً عجولاً بخطف ومض، دون إعادة أو استزادة كما هو الحال مع مثاوى الشياطين وأمكنة المتعذبين.

خلال ذلك كله، نكون نحن المبحلقين بعينيه، المراقبين لحركة شفتيه ويديه المضمومتين، المفرودتين، الطالعتين، النازلتين بالتهديد والوعيد، قد شوينا رعباً، وتلظّينا خوفاً، ومتنا في جلودنا وكأن حاقة

رهيبة قد حطّت علينا حطاً.

كان بعضنا يفضّل الغياب عن المدرسة يوم دروسه، والبعض الآخر يؤثر التذرّع بالمرض حيناً حتى يفوت الوقت، فيذهب إلى حكيمة المدرسة للبقاء بغرفة الكشف الطبي حتى ينقضي فصل الجحيم هذا.

زميلنا المسكين عبد الرحيم الطيب ذو البنية المضعضعة، والسن المتسلط نبتاً على سنه العلوي الأمامي، كانت تسحّ عيناه سخيناً بمجرد أن يبدأ أستاذنا حديث السعير إياه، فتأخذنا الشفقة عليه وهو الباكي الحساس لأى سبب ولأتفه سبب، حتى لانقصاف سن قلمه الرصاص أو مناهدة عبد القوي الأعسر زميله في الدكة عندما لا يعطيه برايته، لينبت لقلمه بها سناً جديداً.

لقد ظل أمرنا هكذا، حتى قبيل نهاية العام الدراسي بقليل، أو حتى ذلك اليوم الذي لا يمكن نسيانه أبداً، والذي لم أعد أخشى بعده تهديد أبي بطرد أمي من البيت، ولا عفاريت العتمة المتربّصة بي تحت بئر السلم كلما انقطع تيار الكهرباء عن منزلنا، فتسلسلني بالرعب لأعدو عدواً وأقفز قفزاً، كلما صعدت أو هبطت إلى ومن شقتنا في الدور الرابع لاجتيازه إلى الطريق.

كان مدرّسنا قد دخل الفصل كعادته عندّ ذلك اليوم البعيد، وبدأ يشرح دروسه، وقد استقرت مقعداتنا الصغيرة على مقاعدنا مع اندفاع كلمة جلوس من شفتيه، وما أن وصل إلى فصل السعير المكرور، والذي بات لنا كشربة الدود الفظيعة، لأن أستاذنا لم يعد يملك صوراً مبتكرة قادرة على إلهاب مخيلتنا بمزيد من الرعب، حتى أن بعضنا بدأ

يغامر بالتثاؤب خفية، أو يصارع الوقت بالعبث بطرف قميصه المدرسي، أو يحملق في السقف، ولا أدري كيف انتقلت عدوى التحديق بالسقف من بعضنا إلى البعض الآخر، ليبدأ بعد ذلك ضحك خافت مكتوم، سرعان ما أخذ يتصاعد رويداً رويداً وقد عجزت عن تحمله جنباتنا الغضة، حتى تهيأت انفجارات لا رادّ لها، وكأن مسّاً من شيطان قد أصابنا جميعاً وراح يسري فينا واحداً إثر آخر. كان فصلنا المدرسي حجرة واسعة من حجرات قصر قديم جرى تأميمه زمن ثورة الجيش، فصار مدرسة حكومية، مثلما كان الأمر بالنسبة لقصور وسرايات عديدة نزعت ملكيتها من أسرة حاكمة إقطاعية لم تستطع مواصلة الحياة لأكثر من مائة وخمسين سنة، وكنا نتشارك الحجرة مع عشرات من بني العنكبوت، التي حولّت سقفها المدهون بالجير الأبيض إلى مفرش كبير مطرز بخيوط رمادية وبقع سوداء لا حصر لها، فلا نعبأ لهذه الكائنات الزخرفية، إلا عندما تتجاوز حدودها الإقليمية، هابطة إلى الأركان القريبة من الأرض، فتستثيرنا بخيوطها الحريرية وحركتها السريعة، فنأخذ في مطاردتها بينما هي تتحرك هنا وهناك، ولكن عنكبوتاً منها ـ في ذلك اليوم البعيد ـ طغى بفرادته على الجنة والنار، وهيمن علينا وقد تحكم بأبصارنا وهي تتابعه وكأننا بحضرة ألعبان سيرك، إذ أخذ يهبط رويداً رويداً من مكمنه بالسقف وقد تعلّق بخيطه المتأرجح بنسمات الربيع الداخل إلينا من شبابيك الحجرة، حتى اقترب اقتراباً وشيكاً من رأس أستاذنا الصلعاء الصلدة كصخرة نارية ضخمة داكنة دكت دكاً فوق كتفيه.

ظل العنكبوت وقتاً يتفنن في عرضه، فما أن يوشك على الاقتراب وملامسة رأس أستاذنا، حتى يسارع بلملمة خيطه مبتعداً عنه، وكأن شيئاً ينفّره منه ويبعده عنه إبعاداً، لكنه لا يلبث وقتاً حتى يعاود الاقتراب مرة أخرى، وكأنه طائرة فقدت مجالها الجوّي وراحت تحوم في السماء باحثة عنه. بقينا نراقب حركة العنكبوت في صمت وبأنفاس مبهورة، أخذت تتحول إلى ابتسامات خجولة، فضحكات مفضوحة، بلغت ذروتها في قهقهات مجتاحة ومكتسحة لأي انضباط، بينما مدرّسنا متسمّر داخل قوسين من الذهول والغضب، فلما وجد أن أمرنا زاد وانفلت صرخ فينا بقوة:

ـ إخرسوا. منك، له!

سكتنا وقد أفقنا من سكرة المرح، وتوجسنا بما حمله لنا صوته من وعيد. ربما سيأمرنا برفع أيدينا إلى أعلى، ما تبقى بعد ذلك من وقت الحصة، ربما سيضربنا بعصاه الخيزرانية الرفيعة على ظاهر راحاتنا وعقلات أصابعنا، وربما سيسوقنا جميعاً إلى مكتب ناظرة المدرسة لتختار ما يناسبنا من صنوف الجزاء، لكن العنكبوت لم يكن عابئاً بكل ذلك، لم يكن معنياً بمصيرنا الذي جرّنا إليه، إذ ظل متلهياً بلعبته حتى دفعنا رغم كل ما نحن فيه من وجل ورعب إلى هئ، هئ، هئ، من جديد.

توتّر أستاذنا، لم يتمالك نفسه، اندفع إلى واحد من الذين علت قهقهاتهم على قهقهات الجميع وأمسك به وهو يقول:

ـ وقعتك سودا. أخرج بره الفصل.

وبينما المسكين يهم بالخروج وأستاذنا يعود إلى مطرحه المعتاد إذ

بالعنكبوت ينهي المشهد الأخير لفصل الجحيم، وقد بدأ يلامس الحجر الناري ويتـحرك على سطحـه الأملس، ليندلع بركان من الضـحكات مكتسحاً كل شيء ويجرف محاولة لجمنا، خصوصاً وأن أستاذنا، كان قد راح يحرك رأسه يمنة ويسرة في حركات عـصبية سريعة، بينما يده ترتفع لتنزع العنكبوت عنها، وما أن لامس كـفّه الغليظ السمين الجسد الصغير الرخو، حتى صرخ وكأنه طفل صغير يخاف مثلنا، وربما أكثر مما نخاف بكثير... بكثير.

بيضة الديك في طيبة

بعد سنوات طـويلة من وفاة الفرعـون أمنمحـات الثالث، الذي يقال إنه أول من جلب الفراخ والرمان من أرض سورية إلى بر مصر. فكّرت الفرخة في أحوال جنس الفراخ طويلاً، ثم قالت لديكها وهما يسيران يلتقطان البرّ من الأرض:

ـ ألا تشعـر يا عزيز عـيني أننا مظلومان كـثيراً فـي هذه البلاد، فأنت من أجمل وأروع المخلوقات على وجـه الأرض، لك طلعة بهيّة إذا ما أقبلت، وريشك ملوّن بألوان قوس قـزح الساحرة، أما رأسك، فياله من عرف أحمر قان ذلك الذي يعتليه. أنت قلما يوجد مثيل لك في عالم الطير أو الحيوان، ثم إنك أول من يصيح وينبّه الناس بحلول الإله رع بنوره الباهر علـى الكون. أما أنا فأبيض كل يوم بيضة، ثم أرقد على البيض ثلاثة أسابيع بالتمام والكمال وأصبر على هذي الحال حتى تخرج الكتاكيت من تحتي، بعد أن نفحتها رعايتي ودفئي، ورغم كل ذلك يا عزيزي، فـنحن ليس لنا نصيب من القـداسة والتبـجيل، مثلما هو الحـال مع الطيور والحيوانات الأخرى الموجودة حـولنا، فما رأيك يا بعلي الغـالي في أن نذهب إلى الكاهن الأعظم، في مـعبـد آمـون الكبيـر، بمدينة طيبـة المقـدسة، ذات الأبواب السبعـة، فنبثـه

شكوانا، طالبين منه أن يمنحنا بعضاً من القداسة، وشيئاً من التبجيل يليقان بكائنات فريدة، معطاءة، متميزة مثلنا، فيحترمنا الكلّ، ويقيم الناس لنا التماثيل الجميلة في كل مكان، ويقدمون لنا الأعطيات والقرابين، وهم خاشعون قانتون، مثلما هو الحال مع كل الآلهة الأخرى.

كان الديك شاباً يافعاً في مقتبل العمر، شديد الزهو بجماله وفتنته التي كثيراً ما وضِعَتْ موضع الاختبار والتطبيق، فاستسلمت له دون قيد أو شرط كل دجاجات الحظيرة، ويشهد على ذلك الكم الكبير من الكتاكيت التي جاءت إلى الدنيا تحمل لون الريش ذاته، وشكل العرف نفسه اللذين له، لذلك وربما بسبب ما جبلت عليه الديوك من ميل غريزي إلى الهيمنة والتسلط لم يفكر الديك طويلاً، بل رد على الفرخة في حماس واندفاع وهو يقول:

ـ صدقت والله يا أم الخير، فما تقولينه هو عين الحكمة والعقل، وإن كنت بصراحة لم أفكر فيه من قبل، فالحقيقة أنه لا يوجد من هو أجمل مني في جنس الطيور، اللهم إلا الطاووس، لكنه لا يسكن أرض كيميت هنا، مثلي، كما أن صوته مزعج، حادّ، يخلو من كل رقة وشاعرية كما هو صوتي، فلا معنى لمنحه القداسة والتبجيل، أما الحيوانات، فيكفي أنها لا تقدر السير إلا على أربع، وقلما يوجد منها من يتحلّى بالأناقة والرشاقة في المظهر مثلي، أما أنت يا دجاجتي الأثيرة، فأتحدى أي كائن يمكنه القول بأنه أكثر حناناً وعطاء منك، أو أنه أكثر إحساساً بالمسؤولية منك. معك كل الحق والله، فلنذهب إلى كاهن آمون المعظم ونعرض عليه مطلبنا فهذا عين العقل، وعين الحق

والعدل.

في صباح اليــوم التالي، وبعد أن صاح الديك منبهــاً الجميع إلى ظهور الإله رع، وقامت الدجاجـة بواجباتها النوعية، فـوضعت بيضة اليــوم، خرج الزوجــان مـعاً من الدار، وسـارا بكل تؤدة ووقـار في شوارع وحـواري مدينة طيـبة المقدّسـة، وكانت الدجـاجة محـقّة في اقتـراحها بالخـروج فور طلوع الفـجر، إذ كانت المدينـة ما تزال هادئة والشوارع خالية من الناس والحـجّاج القادمين من كل مكان في البلاد للحج إلى معبد آمـون الكبير، فما أن وصلا المعبـد، حتى استأذنا من حراسه للمثول بين يدي الكاهن الأعظم، وبمجـرد أن أجيب طلبهما، دخلا إليـه فراعهمـا جلال المكان وعظمته، فلقـد كانت هذه هي المرة الأولى التي يدخل فـيهـا الديك والدجـاجة مـعـبداً، وكـان الكاهن المقـصود واقـفـاً بكل هيبـة وشـموخ بين صـفين من الكهنة حليـقي الرؤوس، المرتدين أفخر الأثواب الكتّـانيّة شاهقة البياض، وجـميعهم صامت لا يصدر عنه إلا صوت الأنفاس ووجيب القلب في الصدر.

ورغم مشـهدهم المهـيب، إلا أنهم بدوا أضآل كثـيراً في عـيون الدجاجـة والديك من جـدران المعبد العـالية المنـقوشة بأبـدع الرسـوم والتصـاوير، تنهّدت الدجـاجة وهي تتـأمّل بانبهـار بالغ الفن المصنوع بكل دقة وإتقـان، وبدت كالمسحورة تمامـاً حتى أنها فغـرت منقارها، دون أن تصدر صوتاً، وقد ظلت واقـفة دون حراك، بدت كواحد من تماثيل المعبد المنتشرة هنا وهناك بين أعمدته ودهاليزه الكثيرة.

كانت الدجـاجة خلال ذلك، تتـمنى على الله، أن يلبّي الكاهن الأعظم طلبـهمـا سريعـاً ويمنحـها مع ديكهـا الأعز، حق التـبجـيل

والقـداسة، فـيقـوم المصورون برسم صـورتها وصـورة الديك بألوان جميلة، وأوضـاع جليلة، فتأتي هيأتها مـرّة وهي راقدة على البيض، ومرّة وهى سائرة بكل وقار وسط الكتاكيت الصغيرة ومرّة وهي تلتقط الحب من الأرض، أمـا الديك، فـقـد تصورت الـدجاجـة أن تظهـر صورته بينما هو يمد رقبته صائحـاً مرة، أو وهو ناشر جناحيه البديعين مـرة أخرى، وهكذا يبـدوان على حوائـط المعبـد في كل مكان كمـا القط، والتمـساح، والأسد، والعـجل، والبقرة، والكلب، والصـقر واللقلق، والجعران، وغير ذلك من الحيوانات، والطيور المقدسة. ظل الديك والدجاجة صامتين لفترة من الوقت رهبة وإجلالاً ـ لكن الديك سرعـان ما انتـبه إلى ضـرورة أن ينطق فيـقول شـيئاً، لـذلك حاول التماسك واسترداد أنفاسه المبهورة ليقول بعد جهد:

ـ أيها الـكاهن الكبيـر في هذا المكان الطاهر المقدس، يا وسـيط آمون المعظم، أيهـا القريب من كل الآلهة، يا عالم الأسـرار المقدسة، أيها الطائر حليق الرأس والجسـد، الذي لا يأتيه الدنس أبداً، يا خادم رع في كل حين، أيها المبارك من كل الآلهة، يا حم نتر، يا وعب، يا خـرى حب، أيها الكاهن المرّتل، أيهـا المبـجّل من جمـيع الناس في طيبـة، وفي جميع أرض كيـميت المحروسـة، يا من تدخل إلى قدس الأقداس وتطّلع على كل الأسرار، ها أنا الـديك الطيب المعترف بكل آلهة طيبة، أجيء إليك بكل خشوع، مع دجاجتي المفضلة عندي على كل الدجاجـات، أم الخيـر العمـيم، والعطاء الذي لا ينقطع إلا بإذن أوزوريس المخلّص، المسـتـقـرّ في ملكوته العلوي، لـنعـرض عليك مظلمتنا ونلتـمس منك طلباً ورجاء، فـانظر إلينا بعين العطف والودّ،

واشملنا بحبك ورضاك، بحق آمون رب الأرباب، ومين مانح الحياة، وإيزيس إلهة السماوات والأرضين، ورع السرمدي في سماء الأبدية بنوره الباهر المبين الذي لا تقوى عليه ظلمة أو ديجور.

أقول لك يا سيدي الكاهن العظيم إننا نستحق التبجيل والقداسة، ونلتمسهما منك، آملين في عدلك فأنا أمتثل دون تأخير لأمر الإله رع، فأصبح بمجرد أن ألمح شعاع ضيائه البهي في الأعالي، وأكرر ذلك منبهاً الجميع حين أجده قد صار في كبد السماء معلناً حلول الظهيرة أما عندما يمضي غارباً ليحلّ المساء، فإنني أودّعه على أمل اللقاء به في الصباح التالي، وأنا أنشد بكل محبة نشيدي: كوكوكوكوكوكوكو.

أما حرمي الفرخة أم الخير فهي لا تتوانى عن مواصلة دورة الحياة، فتبيض دوماً بدأبها المعهود، وترقد على البيض لتخرج الكتاكيت. ولن أذكرك يا سيدي بأننا من ألطف وأرق الكائنات في هذا العالم، والجميع هنا في مدينة طيبة وفي كل مكان في البلاد يحبوننا كثيراً، ولا يستاء أحد منّا أو يضيق بنا أو يتذمر أبداً. وأقسم لك يا سيدي أننا لم نرتكب أية معصية تغضب الآلهة فنستحق بسببها أن تحلّ علينا اللعنة، لذلك فنحن نلتمس منك يا سيدي أن تباركنا وتمنحنا ما يليق بنا من القداسة والتبجيل مثلما هو الحال مع القط بسّ، والتمساح سبك، والبقرة حتحور، والذئب أوبواوت، وطائر اللقلق بنو، والثور الأرمنتي بوخيس، وطائر أبو منجل أبيس، والكبش خنوم، والصقر حوريس، وكل أولئك المقدّسين المبجلين الذين شملتهم بعطفك ورعايتك، فنحن لا نقل عن أي من هؤلاء

بأي حـال من الأحوال، بل لعلنا أكـثر نفـعاً، وألطف خلـقة، وأرق معشراً، ورغبتنا في العيش بسلام واضحة للجميع.

ثم إن الديك وقف مرفـوع الرأس بكل ثقة ووقار بعـد أن انتهى من كلامه، أما الدجـاجة فلم تتمالك نفسها من الفـرح والفخر بعزيز عينهـا وشعرت وكأنـها باضت في القفص لتـوها، فكادت أن تصيح فخـراً وقد اكتـشفت أن ديكها بـليغ، فصيح، قـوي الحجة، سـاحر البيـان، له صوت رائق، واثق، استبـان جماله وهو يتـردد في أرجاء المعبد الكبيـر، لكنها بقيت ساكتة، إذ وجـدت أن الوقار والهدوء أليق بها وهي واقفة بين أيدي الحضرة الكهنوتية المهيبة، في باحة هذا المعبد العظيم.

ظل كاهن طيـبة الأعظم ينظر إليهـما طويلاً، وهو يفكر دون أن يقـول شيـئاً، وقـد ران على المكان سكون مـهيب، وصـفا الكهـان منضبطان مطرحهـما دون أية حركة أو همسـة، وكأنهم تماثيل عُملت من صـوّان، وربما كان سكون الكـاهن الأعظم لأنه راح يفكر في أن مسـألة القداسة والتـبجيل من المسـائل الجليلة المقدسـة، التي يصعب شرحهـا وإفهامهـا لدجاجة أو ديك، فهي من المـسائل المستعـصية إلا على الخـواص المتـخـبين القـادرين على الولوج من برزخ التـصـوير والتجسيد إلى عالم التخييل والـتجريد، فقوّة الآلهة وجبروتها لا يمكن للعوام فهمهـا إلا بالتجسيد والتمثيل، وما طيـور وحيوانات وحشرات البيئـة إلا وسيلة لتحقـيق الغاية الساميـة العظيمة، لكي يتفـهّم العوام فكرة الدين، ومسألة الألوهية الصعبة العويصة.

لذلك فإنه لما لم يجـد ما يقوله للديك والدجاجـة، وهو المتيقن

تماماً من عجزهمـا عن فهم هذه المسائل النخبوية، قـرر أن يوبخهما، فقال لهما بصوت هادىء متأفف، مستخفّ، مستعل، متكبر:

ـ الحقيقة أنكما يجب أن تخجـلا مما تفكران فيه، وسمعته الآن، فـالغرور، والطيش، وحبّ الذات، والحـمـاقة، والعـجز، وضـعف التفكير، وقلة الحيلة، والتدبـير، كل ذلك أوحى إليكما بالحضور إلى هذا المعـبد المقـدس، وقول كل هذه التـرهات التي تفوّه بهـا الديك، فأنتـما لا تدركان أن الآلهـة يجب أن تكون قوية، جبّـارة، مخيـفة، صارعة، عنيفة، فتّاكة، مسيطرة، مـهيمنة، مرعبة، مخرّبة، صاعقة، مزلزلة، حارقة، منتقمة عند اللزوم، فالإله بسّ له أنياب وأظافر يمزق بها أعـداءه وقت الضرورة، والتمـساح سبك يبـتلع إذا ما أراد أياً من الكائنات، حتى وإن كـان خارج النهر مسـتلقياً على الشاطئ يتـمشّى ويروّح عن نفسه قليلاً، أما الذئب أو بواوات، فـأنتم يا معشر الفراخ أدرى من أي من الكائنات الأخرى في هذا العـالم به وبشرّه الرهيب، وتعرفـون كذلك أن قـوّة الثور الأرمنتي بوخيس، تصـبح وكأنهـا قوّة العاصفة الهوجاء إذا ما اجتاحه الغضب، وحينئذ لا يستطيع أحد لجمه أو إيقافه، ولعلكما رأيتما ذلك بأعينكمـا، ذات مرة. والبقرة حتحور لا تقل عنفـاً وجبـروتاً عنه، فهي عندمـا تدوس الحشـائش بأقدامـها تدمرها تمامـاً مهمـا كانت طوالاً. ولعلكما تدركـان جيداً أن الصنـقر حـوريس يحلق في أعلى الأعـالي، دون أن يدانيه أي طائر آخـر في السموّ والارتفاع، وقد اسـتحق بذلك أن يكون ملك السماوات كلها، وهو مستطيع أن ينـظر أعداءه من عليائه بعينه القوية الـرهيبة، لينقضّ عليـهم ويفـتك بهـم في أية لحظة يريد. ثم هل تظـنون أن أبو منجل

طائر أبيض طويل السيقان، لطيف المنظر، ينقر الطين في هدوء ودعة، ويحبّه الفلاحون لأنه يساعدهم على تنقية أرضهم من الدود؟ لا. لا وحق آمون العظيم، فأبو منجل طائر رهيب - وإن لم يبد كذلك - ولا أحد يستطيع الاقتراب منه والتحرش به مهما كانت قوته وجبروته، حتى لو كان من أقوى السباع والأسود فلحمه مرّ جداً، يستعصي على الأكل، والغثيان والتقيؤ هما نصيب كل من يتعب نفسه فيكرّ ويفرّ ويناور ويبذل الجهد ويعرق لاصطياده، لأنه ما أن يشرع في نسر نسيرة واحدة من لحمه، حتى يدرك أن سعيه جاء على فاشوش، وأن نقبه صار على شونة.

ثم إنكما قد خرجتما عن حدود اللياقة والأدب ووقاحتكما زائدة عن الحد، وغروركما هيأ لكما المجيء إلى هنا لتضييع وقتنا دون أن تحضرا معكما ما يلزم المعبد من بيض، ودون أن تفكرا في تقديم أية عطيّة أو هبة للآلهة المقدسة، بل ووصل بكما الأمر إلى حد طلب القداسة والتبجيل، دون أن تسألا نفسيكما لماذا أمنحكما القداسة والتبجيل مثل الحيوانات والطيور المقدسة، وأنتما بلا حول ولا تمتلكان أية قوة كانت، بل أنتما رهن إشارة كل الناس، وأي حيوان مهما كانت قوّته محدودة، يستطيع أن يفتك بكما بكلّ يسر وبساطة، الذئب يستطيع ذلك، والثعلب يمكنه ذلك، والثعبان الزاحف قادر على صرعكما، حتى ابن عرس الذي ما هو إلا نوع من الفئران يمكنه خنقكما ومصّ دمائكما، دون أن تستطيعا لمنعه سبيلا، ولولا أن الناس يوصدون على حظائر الدجاج الأبواب جيداً، ويحوطون عليها من كل ناحية، لكان جنسكم قد انقطع من الدنيا منذ زمن طويل، ولم يبق

لدابركم ذكر فيها، أنتما تهرفان وتدوران في دوائر الغيّ والحماقة، وتظنان أن المسألة إنما هي مسألة قبح وجمال، ورجلين أو أربع، وأصوات حلوة وأصوات منفّرة، لا والله، لقد جانبكما الصواب وزيّن لكما ست الشرير، وسخمت المحاربة ما ظننتماه وسمعته الآن.

كادت الدجاجة أن تعملها تحتها وهي واقفة مطرحها، وقد أخذها خوف ورعب عظيم بعد بسماعها كلمات الكاهن الأعظم، وفكرت أنها ربما تضطر إلى العلاج بالعقار المعروف لشفاء الإسهال، والمكون من ست حبات من فول فينيقيا، وبذر ملوخية يضافان إلى أغنس وتصحن وتحلى بالعسل، ثم تأكلها مع نبيذ البلح. أما الديك فقد استشاط غضباً ولولا قليل من الأدب والحياء، وإدراكه أنه يقف في حضرة الآلهة بهذا المعبد الكبير، وخوفه المعصية التي سيعاقبه عليها أنوبيس فينهش قلبه في الآخرة يوم البعث العظيم، لكان هجم بعزم ما فيه على الكاهن الأكبر هذا، ونقره في كل مكان بجسده، حتى في عضو الإخصاب المقدّس عنده، ولم يتركه إلا إذا ثاب إلى رشده وقال: «حرّمت خلاص لن أعود إلى مثل هذا الكلام أبداً». لكن الديك تماسك، وحكّم عقله، وقد أدرك أنه في موقف صعب لا يحسد عليه، بل وأي تصرف غير محسوب منه، سوف ينقلب ضده على الفور، لذلك اكتفى بهزّ عرفه وراح يحركه بعصبية وهو يتنحنح ليسلّك صوته من حدّة الغضب والانفعال، ثم قال بأكبر قدر من الهدوء والسكينة يمكن أن يكونا لدى ديك:

ـ يا سيدي الكاهن المبجّل، يا صاحب اللسان العطر، الذي لا يفوح منه إلا كل ما هو جميل طيب، ولا ينطق إلا بالحكمة، يا ذا

المنزّه عن الضلال، يا صاحب العبارة الطاهرة المقدسة، أريد أن أقول لك بكل أدب إن الإله سبك لا يقوى على منازلة فرس النهر، والإله بسّ يفرّ من أمام الأسد كما يفرّ الفأر من أمامه، أما البقرة حتحور فهي تذبح في كل مكان، وكذا الكبش خنوم وإن كان ينطح ويبطش بقرنيه. إن القوة الوحيدة هي القوة الأزلية للإله العظيم رع، الذي هو فوق كل قوة، فهو المنير، الوهّاب، الكريم، الرحيم، الدائم، الجميل، البديع، مانح الدفء. ومعطي الحياة و. . . .

ابتسم الكاهن الأعظم ابتسامة صفراء ماكرة، وقاطع الديك بسرعة قائلاً:

ـ إذن، أنت تفتي وتجدّف وتنتقص من قدر الآلهة الأخرى هنا، داخل هذا المعبد المقدس، وفي حضور كل هؤلاء الكهنة المبجلين، ثم تجاهر بالقول إنك لم ترتكب معصية، ولم تفعل إثماً تستحق عليه اللعنات .

قاطعت الدجاجة بدورها الكاهن بسرعة، وقد شعرت أنه يريد الإيقاع بديكها وإيراده موارد التهلكة، وقالت:

ـ حاشا ربّ الأرباب يا سيدي الكاهن الجليل. إن ديكي يقول ذلك مع كل الاحترام والتبجيل لكل الآلهة الكبار، وآلهة الأقاليم، والآلهة الصغرى فنحن نقدّس الثالوث، والسابوع، والتاسوع، بل والتسعة والتسعين إلهاً كلهم دون أن ننتقص أو نزدري أياً منهم.

ثم إنها التقطت أنفاسها قليلاً لتغطّي على انفعالها، وابتسمت وهي تحرّك نفسها بدلال وميوعة قائلة في غنج:

ـ ثم إننا أجّلنا هبتنا للمعبد حتى المرة القادمة، لنكون قد جمعنا

قدراً عظيمـاً من البيض، نحمله إليك يا سيـدي، عندما توافينا بردّك على طلبنا هذا، بمشيئة الآلهة كلها قبل أي شيء.

ابتسم الكاهن الأكبر قليلاً، وهو يغمز بعينه للدجاجة، ثم قال:

ـ إذاً مرا عليّ بعد أسبوع، لسوف أفكر في الأمر.

مر أسبوع، وأسابيع، دون أن تتمكن الدجاجة والديك من مقابلة الكاهن الأكبر، فـقد ظل مشغولاً لشوشتـه، خلال تلك المدة، بسبب أحداث جليلة وعصيبة مرت بها البلاد، فلقد توفى فجأة الفرعون زير النسـاء أمنحـتب الثالـث وتولى العرش مـكانه ابنه الفـرعون الشـاب أمنحتب الرابع، الذي سرعان ما سمّى نفسه إخناتون، وكانت التسمية في الحقيقة هي أسّ المصيبـة التي دوخت كبير كهنة آمون وحلّت على رأسه فـجعلتـه مشغـولاً مهمـوماً لا يتذكـر شيئـاً من أمر الدجـاجة والديك، وكأنهما لم يحادثاه أو يقـابلاه، وكأنه لم يعدهما بالردّ على مطلبهمـا والتفكير فيه، فـالفرعون الشاب كان أحـد الكهنة العديدين الذين شهـدوا لقاء الكاهن الكبـير مع الدجـاجة والديك في المعـبد، واستـمعـوا إلى ما دار بـينهم من كلام، وقـد ظل إخناتون منذ ذلك الوقت وحتى بعـد وفاة أبيه وتوليه العرش، يفكر فـي كل ما قيل من كلام، وبات مقتنعـاً أن الديك لم يجانبه الصواب فيمـا قال، فما من إله مهما كان، إلا وقوته محدودة، نسبية، غير كلّية أبداً، ما عدا الإله رع، فهو كلـي القدرة، مطلق القوة. تكمن في قرصـه الذهبي الباهر الحقيقة الخفية الجلية في آن معاً، والتي لا مثيل لها على الأرض أو في السماء، ووفـقاً لمنطق الكاهن الأعظم نفسه، والـذي كان إخناتون قد درس على يديه، في جامعة أون بعين شمس الطب والحكمة والفلسفة

والفلك والمنطق، فإن رع هو الإله الحق الجديد وحده بالعبادة، وهو المستحق لكل قداسة وتبجيل، طالما أن القوة هي الأساس في منهج القياس المنطقي، ورع هو وحده الوهاب، المعطي، الجبّار، القهّار، الذي يجب أن تسبّح بحمده كل الكائنات ولا تشرك بعبادته أحداً أبداً.

ثم إن الفرعون الجديد، أخذه الحماس لفكرته كثيراً، وسرعان ما أخذ يعلنها على الخلق أجمعين، فلما صار له أتباع ومريدون، ومؤمنون بأن لسانه لا ينطق عن الهوى، ولا يقول إلا ما هو حق، بدأ في شن حرب شعواء على كل أولئك الذين قالوا بالتجسيد والتعدد، وصوروا الآلهة على هيئة طيور وحيوانات وحشرات، فأقصى كهنة معبد طيبة جميعاً وعزلهم من وظائفهم، فلم يعودوا يحصلون على هبات أو عطايا، وباتوا لا يتحكّمون في ممتلكات المعبد من أراض ومخازن للغلال، ولم تعد لهم كل تلك الكنوز الذهبية التي كانت من ثروات المعبد. وصاروا بشراً عاديين كسائر خلق الله، وقد سقطت عنهم كل هالاتهم المزيفة المعمولة بالوهم والإيحاء. ومنذ ذلك الوقت تمتعت الدجاجة والديك بطمأنينة وسكينة لم يعهداها من قبل أبداً، إذ تيقنا أن ثمّة نوعاً من العدل في هذا العالم، فعاشا يؤديان دورهما في الحياة بقناعة ورضا، وقد شعرا أن الحيوانات والطيور الأخرى مثلهما دون قداسة أو تبجيل.

الوحيد الذي عاش بعد ذلك في الألم والحسرة والندم هو كاهن معبد طيبة الكبير، فقد عاش في الألم بسبب اعتياده الغنى والهيمنة على الآخرين، وظلت الحسرة تأكل روحه مثلما يأكل أنوبيس قلب

المتـوفي الآثم في الآخـرة، لأنه لـم يفكر جـيـداً ويزن الأمـر بميـزان الفطنة، فيمنح القـداسة والتبجيل للدجاجة والديك عندمـا التقياه في معبد آمون العظيم، وكانت حسرته تتزايد دوماً، كلما تيقن من قصور مفهومـه القديم عن القوة، وهو القصور الذي جـعله يدفع ثمناً فادحاً ويخسـر خسـارة عمره التي لا تعـوّض أبداً، أما الندم فـقد ظل نديم شرابه طوال الوقت، وقد أدرك بعد فوات الأوان المغزى العميق للعبارة القديمة القائلة: «الأشياء مرهونة بأوقاتها».

الفهرست

صدر للكاتبة

- زينات في جنازة الرئيس (قصص قصيرة) ١٩٨٦، القاهرة.
- مقام عطية (رواية وثلاث قصص قصيرة) ١٩٨٦، دار الفكر القاهرة.
- عن الروح التي سُرقت تدريجياً (قصص قصيرة) ط١، ١٩٨٩، مصرية للنشر، القاهرة ـ ط٢، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء (رواية) ط١ ،١٩٩١،سينا للنشر، القاهرة ـ ط٢، ٢٠٠٠، دار سحر للنشر، تونس.
- عجين الفلاحة (قصص قصيرة) ١٩٩٢، سينا للنشر، القاهرة.
- وصف البلبل (رواية) ١٩٩٣،سينا للنشر، القاهرة.
- أرانب (رواية قصيرة وقصص) ط١، ١٩٩٤، سينا للنشر، القاهرة ـ ط٢، ٢٠٠٢، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- إيقاعات متعاكسة (قصص قصيرة) ط١، ١٩٩٦، دار النديم، القاهرة ـ ط٢، ٢٠٠٢، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- ليل ونهار (رواية) ١٩٩٧، دار الهلال، القاهرة.
- نونا الشعنونة (قصص قصيرة) ١٩٩٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- البشموري (رواية) «الجزء الأول» ط١، ١٩٩٨، دار الهلال، القاهرة.
- البشموري (رواية) «الجزء الثاني» ط١، ٢٠٠٠، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- البشموري (الجزأين معاً) ٢٠٠٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- حلم السنين (مسرحية) ٢٠٠٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب.



تسعى الكاتبة من خلال هذه المجموعة القصصية الجديدة إلى استكمال مشروعها الأدبى الذى تبينت ملامحه منذ كتاباتها الأولى، وهو الكشف عن تناقضات المجتمع و علاقاته الإنسانية و استدعاء الكتلة العريضة المستبعدة فيه إلى بؤرة السرد الأدبى ، سعياً لإبراز معاناة هذه الكتلة و عملاً على طرح همومها ورؤاها لدى المتلقي .

وتسعى الكاتبة إلى ذلك بطرائق سرد و سمت أعمالها كلها وهى السخرية الفارقة للظا و الباطن فى العوالم الإنسانية ، و تبقى الـ فى أعمالها إشكالية حاضرة و هماً يمكن تلمـ دوماً ، فهى تسعى إلى إيجاد بدائل لغوية ، دا بالتعبير الأدبى إلى حده الأقصى في محا لإعادة اكتشاف اللغة مرة أخرى.

Bibliotheca Alexandrina
0414751

مكتبة مدبولى